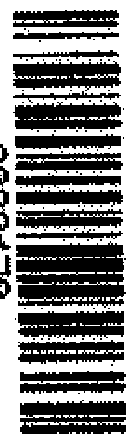
الإمام الخميني

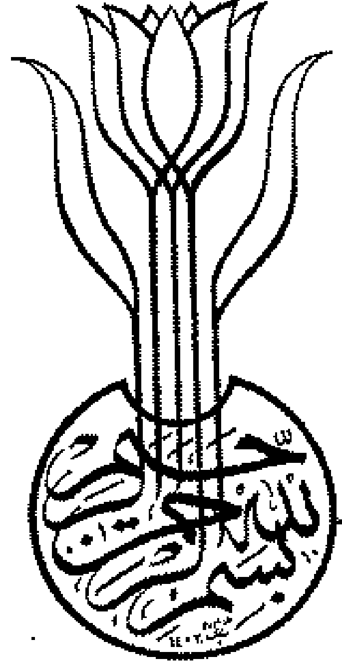
الجهاد الأكبر

ترجمة: حسين كوراني





الدار الاسلامية



الجهاد الأكبر

الطبعة الرابعة

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م



كورنيش المزرعة - بناية الحسن سنتر - طابق ثاني - هاتف: ٨١٦٦٣٢٧
ص. ب: ٥٦٨٠/١٤ - تلكس: ٢٣٢١٢ غندير
فرع ثاني: حارة حريك - شارع دكاش - هاتف: ٨٣٥٦٧٠ - ص. ب: ٢٥/٢٠٩

الإمام الخميني

الجهاد الأكبر

ترجمة: حسين كوراني

الدار الإسلامية
بيروت ، لبنان

الإهداء

إلى شهداء الإسلام

في إيران

ولبنان

وأفغانستان

والعراق ...

وإلى المجاهدين في سبيل الله في كل مكان ...

أهدي ثواب هذا الجهد

بسم الله الرحمن الرحيم

الجهاد الأكبر جهاد النفس

عن الإمام الصادق عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث بسرية فلما رجعوا قال : مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر فقيل يا رسول الله ما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد النفس .

الوسائل ج ٦ ص ١٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

ها قد انقضت سنة أخرى من عمرنا .. أنتم أيها الشباب تسيرون نحو الهرم والشيخوخة ، ونحن الشيوخ نسير نحو الموت . تعرفون مدى تقدمكم العلمي في هذا العام الدراسي ... وتعرفون الرصيد العلمي الذي حصلتم عليه ، وإلى أي مدى رفعتم من مستواكم ..

أما في المجال الأخلاقي ، وتحصيل الآداب الشرعية ، وتحصيل المسلكية الإسلامية ، وتزكية النفس وتهذيبها .. فماذا فعلتم ؟ وأية خطوة إيجابية خطوتم ؟.

هل كنتم بصدد تهذيب أنفسكم وإصلاحها ؟ وهل وضعتم خطة في هذا المجال ... وحاولتم تنفيذها ؟.

للأسف ... أراني ملزماً أن أقول لكم : إنكم لم تقوموا بعمل ٍ ملحوظ ... ولم تقطعوا شوطاً يذكر .

مقدمة الطبعة الثالثة

كانت الطبعتان الأولى والثانية من كتاب «الجهاد الأكبر» للإمام القائد السيد الخميني قدس سره استشفافاً لتطلعات المؤمنين، واستفتاء لآرائهم، فأتت النتيجة على خير ما كنا ننتظر، وكان الإقبال عليهما عظيماً، والنفاد سريعاً.

وإننا إذ نضع هذه الطبعة الجديدة بين أيديكم، فالأمل يحدونا بأن تلقى الثالثة ما لقيته سابقتاها، حاملة للمؤمنين، الصورة المثلى لمكارم الأخلاق، وتهذيب النفس، ومراقبة السلوك، على المنهج الإسلامي الحنيف وفي السبيل البيّن المستقيم، الذي اختطه، ودعا إليه قولاً، وسار عليه فعلاً وعملاً سماحة الإمام القائد السيد الخميني قدس سره.

والله الموفق.

الناشر

بين يدي كتاب

بالرغم من كثرة ما كتب عن ثورة الإسلام في إيران لا زلنا بحاجة إلى استكشاف سر نجاح الإمام الخميني قدس سره في تحقيق هذا النصر العظيم .

والكتّاب غير المؤمنين لا يمكنهم فهم سر نجاح قائد إسلامي مؤمن .. ذلك لأنهم محكومون لنمط التفكير الغربي أو الشرقي البعيد عن حقيقة الإسلام وثورته . والمؤمنون بالله سبحانه وحدهم يستطيعون أن يدركوا حقيقة ما حدث في إيران ، أما أولئك الذين فقدوا مقومات الرؤية فلم يحن الوقت بعد ليفهموا حقائق الإيمان ومعادلاته ، وسيبقون يتخبطون في متاهات الحسابات المادية يفتشون عن سر قدرة المؤمنين العزل على تحطيم أعتى طاغوت في المنطقة !

* * *

إن أول شرط لنجاح الثورة الإسلامية وتحقيق النصر من وجهة نظر الإسلام هو الإخلاص لله سبحانه . والإخلاص يعني صدق الإيمان وعمق الإيمان .

وإن هذا الكتاب يطلعنا على هاتين الصفتين لدى سماحة آية الله الإمام الخميني قدس سره. بكل وضوح .

على أن هذا الكتاب ليس بالأساس مؤلفاً ، إنما هو مجموعة محاضرات ألقاها سماحته على قسم من طلبة الجامعة العلمية في النجف الأشرف بعد تبعيده من إيران إلى تركيا ثم إلى العراق

وقد حاولت أن أستغني عن بعض الفقرات التي تصورت أن الفكرة تكتمل بدونها .. إلا أنني رأيت ضرورة المحافظة على الاسترسال الذي يطبع هذه الأحاديث .. فإن للإمام الخميني قدس سره طريقته الخاصة في إيصال الفكرة .. إنه يتكلم عن الالتزام بالشريعة السهلة السمحاء بلغة سهلة سمحاء ..

فإلى من يريد معرفة سر نجاح الإمام الخميني أقدم هذا الكتاب

١٣٩٩/٨/٤

والحمد لله رب العالمين

حسين كوراني

حاجة الحوزات العلمية إلى الأخلاق

إن الحوزات العلمية تفتقر إلى تدريس العلوم الأخلاقية ، الروحية ، والمعنوية ، جنباً إلى جنب مع الأمور العلمية الموجودة فعلاً .. إن الإرشادات الخلقية ، وتربية القوى الإيمانية ومجالس النصيحة والموعظة ... ضرورات لا بد منها .

والبرامج الأخلاقية والدروس التي تهدف إلى تهذيب النفوس وتعليم المعارف الإلهية التي هي الهدف الأساسي من بعثة الأنبياء عليهم السلام .. كل ذلك ، ينبغي أن يكون في صلب المواد التي يدرسها الطالب .

ولكن من المؤسف أن الاهتمام بمثل هذه المسائل المهمة والضرورية أصبح قليلاً ، وبدات العلوم الأخلاقية تتضاءل ، إلى حد أنه يخشى أن لا تتمكن مراكزنا العلمية في المستقبل من تربية علماء أخلاق ومربين ومهذبين ، **فلم يبق البحث والتحقيق في المقدمات مجالاً للاهتمام بالمسائل الأصلية والأساسية التي ركز عليها واهتم بها القرآن الكريم والرسول الأعظم (ص)**

بل وسائر الأنبياء والأولياء عليهم السلام .

إنه لمن الضروري أن يركز العلماء الأعلام ، والمدرسون الناجحون خلال تدريسهم وأبحاثهم على الناحية الخلقية ، ويعطوها اهتماماً أكثر .

وعلى الطلاب أن يبذلوا الجهد في سبيل اكتساب الملكات الفاضلة ، وتهذيب النفس .. وعليهم أن يهتموا بالمهام والمسؤوليات الخطيرة الملقاة على عواتقهم .

أنتم أيها الذين تدرسون اليوم في هذه الحوزات وتريدون أن تتولوا في الغد مراكز القيادة في الأمة ، لا تتصوروا أن كل واجبكم أن تحفظوا أو تتعلموا مجموعةاصطلاحات ... كلا . إن عليكم وظائف أخرى .

يجب أن تبنوا أنفسكم بحيث تستطيعون هداية الناس في القرية أو المدينة التي تذهبون إليها .

يؤمل منكم عند مغادرتكم للمراكز العلمية أن تكونوا قد هذبتم أنفسكم وبنيتموها بحيث تستطيعون أن تربوا الناس وفقاً لأحكام الإسلام وتعاليمه .

أما إذا لم تصلحوا أنفسكم لا سمح الله في مراحل الدراسة ولم تكتسبوا الكمال الخلقي والمعنوي فإنكم والعياذ بالله ستضلون الناس وتقدمون لهم صورة سيئة عن الإسلام وعلماء الدين .

المسؤوليات الخطيرة لعلماء الدين

إن عليكم مسؤوليات ثقيلة وجسيمة ، فإذا لم تقوموا بمسؤولياتكم في الحوزات العلمية ، وإذا لم تكونوا بصدد تهذيب أنفسكم .. وكان همكم فقط تعلم بعض المسائل الفقهية والأصولية ، فإنكم في المستقبل ستكونون عناصر إضرار بالأمة ، ويمكن أن تتسببوا بإضلالها والعياذ بالله ، ولو أن إنساناً واحداً من الأمة انحرف بسبب سلوككم ، وأعمالكم ، فإنكم ترتكبون أعظم الكبائر ، وبعيد أن تقبل توبتكم .. تماماً كما لو أن شخصاً واحداً اهتدى بكم فإن ذلك خير لكم مما طلعت عليه الشمس كما في الحديث الشريف .

إن واجباتكم غير واجبات عامة الناس ، وما أكثر الأمور المباحة لعامة الناس ولكنها حرام عليكم ... إن الناس لا يتوقعون منكم القيام بكثير من الأمور المباحة ... فضلاً عن الأعمال الرذيلة وغير المشروعة ، التي ـ لا سمح الله ـ إذا صدرت منكم فإنها تعطي صورة سيئة عن الإسلام وعلمائه .

وهنا لا بد من التأكيد على هذه النقطة : إن الناس إذا رأوا سلوكاً منحرفاً من رجل دين فإنهم سيسيئون النظر بكل رجال الدين لا بهذا الشخص الذي رأوا في سلوكه انحرافاً فقط ، ويا ليت أنهم كانوا يقتصرون في مساءة الظن على شخص واحد ولا يعممون الحكم إلى الآخرين . .

إن الناس لا يحللون الأمور .. عندما يرون عملاً غير لائق من معمم .. كما أن بين الكسبة والموظفين أفراداً منحرفين ، وغير مستقيمين وكذلك بين المعممين أشخاص غير صالحين .. ومنحرفون... ولكن لو أن بقالاً كان منحرفاً نرى أن الناس يقولون البقال الفلاني منحرف .. ولو أن عطاراً كان منحرفاً يقولون العطار الفلاني منحرف .. ولكن إذا قام معمم بعمل غير لائق يقولون : المعممون سيئون .

إن واجبات العلماء وطلاب العلوم الدينية «ثقيلة جداً» ومسؤولياتهم أكثر من مسؤوليات سائر الناس .

وإن الرجوع إلى كتب الحديث يعطينا فكرة واضحة عن هذه المسؤوليات ومدى أهميتها :

١ ــ عن أبي بصير قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول : يا طالب العلم إن العلم ذو فضائل كثيرة :

فرأسه التواضع ، وعينه البراءة من الحسد ، وأذنه الفهم ، ولسانه الصدق ، وحفظه الفحص ، وقلبه حسن النية ، وعقله

معرفة الأشياء والأمور ، ويده الرحمة ، ورجله زيارة العلماء ، وهمته السلامة ، وحكمته الورع ، ومستقره النجاة ، وقائده العافية،ومركبه الوفاء ، وسلاحه لين الكلمة ، وسيفه الرضى ، وقوسه المداراة ، وجيشه محاورة العلماء ، وماله الأدب ، وذخيرته اجتناب الذنوب ، وزاده المعروف ، وماؤه الوداعة ، ودليله الهدى ، ورفيقه محبة الأخيار[1] .

٢ ــ عن أبي عبد الله عليه السلام قال ، قال رسول الله (ص) : الفقهاء أبناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا . قيل يا رسول الله (ص) وما دخولهم في الدنيا ؟ قال : اتباع السلطان ، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم[2] .

٣ ــ عن أبي عبد الله عليه السلام : قال : إنّا لنحب من كان عاقلاً فهماً فقيهاً حليماً مدارياً صبوراً صدوقاً وفياً . إن الله خص الأنبياء بمكارم الأخلاق فمن كانت فيه فليحمد الله على ذلك ، ومن لم تكن فيه فليتضرع إلى الله عز وجل ، وليسأله إياها . قلت جعلت فداك وما هن ؟ قال : هن الورع والقناعة والصبر والشكر والحلم والحياء والسخاء والشجاعة والغيرة والبر وصدق الحديث وأداء الأمانة[3] .

---

(١) الكافي ج ١ ص ٤٨ / باب النوادر ج /

(٢) الكافي ح ١ ص ٤٦ .

(٣) الوسائل ج ٦ ص ١٥٥ .

٤ ـ قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه : وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم[١] .

٥ ـ عن جميل بن دراج قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول إذا بلغت النفس ههنا وأشار بيده إلى حلقه لم يكن للعالم توبة . ثم قرأ : **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة**[٢] .

٦ ـ عن حفص بن قياس عن أبي عبد الله عليه السلام قال : يا حفص : يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد[٣] .

٧ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي قيل ومن هما ؟ قال (ص) : العلماء والأمراء .

٨ ـ عن سليم بن قيس الهلالي قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يحدث عن النبي (ص) أنه قال في كلام له : العلماء رجلان : رجل عالم أخذ بعلمه فهذا ناجٍ ، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك . وإن أهل النار يتأذون من ريح العالم التارك لعلمه .

ولهذا يوجد فرق كبير في الدنيا على صعيدي النفع والضرر للإسلام والمسلمين بين العالم والجاهل .

---

(١) نهج البلاغة / الشقشقية صالح ص: ٥٠ .
(٢) الوافي ج ١ ص ٥٣ .
(٣) الوافي ج ١ ص ٥٢

العالم المنحرف يمكن أن يضل أمة بأسرها ، والعالم المستقيم المتحلي بالأخلاق الفاضلة والمهذب لنفسه والملتزم بآداب الإسلام يستطيع أن يصلح ويهذب أمة بأسرها .

وقد لاحظت في بعض المدن التي كنت أذهب إليها في الصيف أن الناس مؤدبون مهذبون ، والسبب في ذلك كما تبين لي هو أن عالم تلك المنطقة إنسان متق وصالح .

إن مجرد وجود العالم المتقي في منطقة ما كافٍ في إرشاد الناس والتأثير عليهم حتى إذا لم يقم بالوعظ والإرشاد ...

٩ ـ في الحديث عن الفضل بن أبي مرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال ، قال رسول الله (ص) : قال الحواريون لعيسى ابن مريم عليه السلام : يا روح الله من نجالس ؟ قال من يذكركم الله رؤيته ، ويرغبكم في الآخرة عمله ، ويزيد في علمكم منطقه .

١٠ ـ وعن أبي يعفور قال أبو عبد الله عليه السلام : كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير فإن ذلك داعية[1] .

ولقد رأينا أشخاصاً وجودهم ، مجرد وجودهم يذكر بالله ويبعث على الاتعاظ والاعتبار .

---

(١) هذه الروايات العشر موزعة في أصل الكتاب بين المتن والهامش وقد رأيت إدراجها بهذا الشكل .

وأنا أعلم الآن إجمالاً أن مناطق طهران تختلف فيما بينها ، فالمنطقة التي يسكنها عالم ورع وتقي تختلف عن تلك التي يسكنها معمم منحرف فاسد . في الأولى ترى الناس مؤمنين صالحين ، وفي الثانية تراهم محتالين منحرفين ، لأن عالمهم اتخذ المسجد دكاناً يتجر فيه .

إن الاتجار بالدين ، والعلم بلا عمل ، هو بعينه العفن الذي يتأذى منه أهل جهنم ، والأعمال السيئة التي يجترحها عالم السوء في الدنيا هي التي تتحول إلى روائح كريهة ومؤذية في الآخرة.لا أنه هنالك يضاف إليه شيء فتصبح رائحته كريهة إلى حد أنها تؤذي المعذبين معه في النار ... كلا ... فعفن العالم غير العامل واللاأخلاقي موجود معه في الدنيا ... ولكن حاسة الشم عند أهل الدنيا لا تبلغه .

إن العالم حين يكون شريراً ويفكر في الأعمال المنحرفة يكون خطره كبيراً جداً ، وليس الإنسان العادي هكذا ، إن الإنسان الاعتيادي لا يمكنه أن يكون سبب انحراف كما يمكن للمعمم أن يكون ، الإنسان الاعتيادي لا يسمح لنفسه أبداً أن يدعي الإمامة والمهدوية والنبوة والألوهية بل العالم الفاسد هو الذي يجر العالم إلى الفساد . وليس بوسع عامة الناس ذلك إذا فسد العالِم فسد العالَم .

محترفو الدين في لباس علماء الدين

إن أكثر الذين تظاهروا بالتدين وتسببوا بانحراف الكثيرين وإضلالهم كانوا من المعممين ... وبعضهم درس في المراكز العلمية حتى أن رئيس إحدى الفرق الضالة قد درس في هذه الحوزة العلمية لكن دراسته لم تكن مقترنة مع تربية النفس وتهذيبها ... ولم يكن يسير على الطريق السوي والصراط المستقيم ، فلم يتمكن من التخلص من الرذائل فكانت عاقبته تلك العاقبة السيئة المدمرة .

نعم إن الإنسان إذا لم يتخلص من الرذائل والخبائث فإن دراسته مهما طالت سوف تضره لأن العلم حين يكون في أرضية غير نظيفة فسوف ينبت نبتاً خبيثاً ، وكلما ازداد علم إنسان يحمل قلباً أسود ونفساً غير مهذبة ، فإن حجب الظلام في نفسه تتكثف ، لأن العلم في نفس كهذه يصبح حجاباً مظلماً (العلم هو الحجاب الأكبر) ولذلك فإن شر العالم الفاسد أخطر من كل الشرور وأكثر .

صحيح أن العلم نور ، ولكن في الأوعية النظيفة والقلوب النظيفة أما الأوعية النتنة والقلوب المظلمة فليس الأمر فيها كذلك إن العلم الذي يطلبه صاحبه للجاه والظهور لا يزيده إلا بعداً من الله سبحانه .

وعلوم التوحيد أيضاً إذا لم تكن لله وفي سبيله فإنها تتحول إلى حجب ظلام ، ولو أن شخصاً حفظ القرآن بالقراءات الأربعة عشر ولكن لم يكن هدفه في ذلك الله سبحانه فإنه لن يجني من حفظه إلا البعد عن الله سبحانه .

إذا درس أحدكم وتعب ، فبالإمكان أن يصبح عالماً ولكن ينبغي أن تعلموا أنه يوجد فرق كبير بين العالم والمهذب

كان أستاذنا رحمه الله يقول : «يقولون : من السهل أن تصبح عالماً ، ولكن من الصعب أن تصبح إنساناً . ولكن هذا خطأ وينبغي أن يقال : من الصعب أن تصبح عالماً ، ومن المستحيل أن تصبح إنساناً ...»

إن اكتساب فضائل الأخلاق ومكارمها والمعايير الإنسانية من التكاليف الشديدة الأهمية والتعقيد الملقاة على عواتقكم ...

إياكم أن تظنوا أنكم قمتم بما عليكم بانشغالكم بطلب العلوم الشرعية وعلم الفقه بالخصوص الذي هو أشرف العلوم . وأنكم بذلك عملتم بما يطلب منكم . كلا .. إذا لم يكن الإخلاص متوفراً فإن هذه العلوم لا تنفع شيئاً ..

إذا كانت حصائلكم العلمية لغير الله والعياذ بالله ، وكانت للأهواء النفسية ، وتحصيل المركز الاجتماعي والوجاهة الدنيوية فإنكم لم تحصلوا إلا الوزر والويل والوبال.

هذه المصطلحات التي تتعلمونها إذا لم تكن مقترنة بالتقوى فإنها كلما ازدادت سوف تضر الأمة الإسلامية دنياً وآخرة . إن مجرد تعلم هذه المصطلحات لا أثر له ولا فائدة ، وعلوم التوحيد إذا لم يرافقها صفاء النفس فإنها ستكون وبالاً على أصحابها .

ما أكثر الأشخاص الذين كانوا من علماء التوحيد ولكنهم كانوا سبب انحراف جموع غفيرة من الناس .

ما أكثر الأشخاص الذين كانوا يتقنون هذه المواد التي تدرسونها أحسن منكم ولكنهم لأنهم لم يكونوا قد هذبوا أنفسهم وأصلحوها بمجرد نزولهم إلى ميدان العمل الاجتماعي كانوا أدوات إفساد وإضلال .

إن هذه المصطلحات الجافة إذا زرعت في الذهن بدون تقوى وتهذيب للنفس فإنها تزيد من التكبر والغرور .

وعالم السوء الذي سيطر عليه الغرور والتكبر سوف لن يستطيع إصلاح نفسه ولا إصلاح المجتمع ... ولن ينتج إلا الضرر للإسلام والمسلمين وبعد أن يقضي السنوات في طلبة العلم وإنفاق الحقوق الشرعية سوف يصبح سداً في طريق تقدم المسلمين ، ووسيلة

إغواء لهم ، وسوف تكون نتيجة إقامته في الحوزة العلمية ودراساته وبحوثه أن يحول دون إطلاع الناس على حقيقة ما في القرآن بل إن وجوده سوف يكون مانعاً للمجتمع عن معرفة الإسلام وواقع علماء الدين .

التربية والعلم توأمان

أنا لا أقول : لا تدرسوا ولا تتعبوا في المجال العلمي يجب أن تلتفتوا أنكم إذا أردتم أن تكونوا أعضاء مفيدين في المجتمع وأن تقودوا الأمة وتوعوها على الإسلام ، إذا أردتم أن تدافعوا عن حمى الإسلام وتذبُّوا عن حياضه فإن عليكم أن تتقنوا دروسكم لتصبحوا ذوي رأي في المجال الفقهي . إذا كنتم لا تدرسون فإن السكن في المدرسة الدينية حرام عليكم ... ولا يمكنكم بوجه من الوجوه أن تأخذوا من الحقوق الشرعية المخصصة للمشتغلين بتحصيل العلوم الدينية . طبيعي أن إتقان العلوم المتداولة من فقه وأصول أمر ضروري .

غاية ما في الأمر أني أريد التنبيه على أن إصلاح النفس يحتاج أيضاً إلى بذل جهد وتعب مستمر ... فاعملوا في المجالين واتعبوا على الصعيدين ، ولا تصرفوا جهودكم في مجال واحد هو المجال العلمي . وكلما خطوتم خطوة علمية عليكم أن تقرنوها بخطوة في تهذيب النفس وإصلاحها ... واستئصال الأهواء

النفسية الخبيثة . وتنمية القوى الروحية واكتساب مكارم الأخلاق وتحصيل التقوى .

إن العلوم التي تدرسونها ليست في الواقع إلا مقدمة للحصول على مستوى خلقي رفيع ، فحاذروا أن تظلوا إلى آخر عمركم منشغلين بالمقدمة دون أن تحصلوا على النتيجة .

أنتم تدرسون هذه العلوم بهدف سام هو معرفة الله تعالى وتهذيب النفس ويجب أن تكونوا بصدد الحصول على الثمرة والنتيجة فاجتهدوا وجدوا للحصول على الهدف الأصلي والأساسي .

عند دخولكم إلى الحوزات العلمية ينبغي أن تكونوا قبل كل شيء بصدد تهذيب أنفسكم وإصلاحها ، وينبغي أن يكون هذا محل اهتمامكم طيلة إقامتكم في الحوزات العلمية حتى يمكن للناس أن يستفيدوا من فضائل الأخلاق التي تتحلون بها عندما تنزلون إلى ميدان العمل الاجتماعي .

حاولوا قدر الامكان أن تصلحوا أنفسكم قبل النزول إلى المجتمع وإذا لم تهتموا بتهذيب أنفسكم الآن وأنتم تمتلكون متسعاً من الوقت وتستطيعون التحكم بوقتكم بسهولة ، فكيف سيمكنكم ذلك فيما بعد عندما تتحملون مسؤوليات كثيرة ، ويصبح عليكم القيام بأعمال كثيرة تستهلك الوقت وتستغرقه .

آنذاك عندما تقبل الدنيا عليكم سوف لن تستطيعوا العمل على إصلاح أنفسكم . كثيرة هي الأمور التي تحول بين الإنسان وإصلاح نفسه ومن هذه الموانع هذه اللحية والعمامة عندما تصبح

عمامة أحدكم كبيرة بعض الشيء ، وتصبح لحيته طويلة ، فسيصعب عليه إذا لم يكن هذب نفسه أن يستمر في تحصيل العلوم الدينية إذ يصبح معتقداً بأن حضور الدرس كتلميذ لا يناسبه ولا يليق بمكانته ... ويصعب على إنسان من هذا النوع أن يدوس نفسه الأمارة بقدمه ويذهب إلى الدرس وينمي معارفه .

الشيخ الطوسي عليه الرحمة كان يذهب إلى الدرس كتلميذ حتى الثانية والخمسين من عمره ، مع أنه كتب بعض مؤلفاته ما بين العشرين والثلاثين ... يقال إنه كتب (التهذيب) في هذه السن ومع ذلك كان يذهب في الثانية والخمسين إلى مجلس درس السيد المرتضى عليه الرحمة ولذلك استطاع الشيخ الطوسي أن يصل إلى هذه المرتبة العلمية الساحقة .

إن من توفيق المعمم أن لا تصبح عمامته كبيرة ، وأن لا يغزو الشيب لحيته قبل أن يكتسب الملكات الخلقية الفاضلة ، لأنه والحال هذه سوف يظل على ما هو عليه وسوف يعجز عن أي استفادة في هذا المجال .

اغتنموا الفرصة واتعبوا قبل المشيب . حاسبوا أنفسكم قبل أن يقبل عليكم الناس وتصبحوا محط الأنظار .

اسألوا الله أن لا تصبحوا ذوي مقام اجتماعي قبل أن تتمكنوا من تربية أنفسكم وتهذيبها وإصلاحها ، لأنكم حينئذ سوف تخسرون كل شيء ، سوف تضلون . فابنوا أنفسكم وأصلحوها قبل أن يفلت الزمام من أيديكم . تحلوا بالأخلاق الفاضلة .

وتخلصوا من الأخلاق الذميمة . ليكن الإخلاص رائدكم في درسكم وبحثكم حتى يقربكم ذلك إلى الله سبحانه .

إذا لم تكن النية في الأعمال خالصة لوجه الله فهي ستبعد الإنسان عن أبواب رحمة الله . حاذروا أن لا تكونوا بحيث عندما يفتح ملف أحدكم بعد سبعين سنة قضاها في هذه الحياة الدنيا يتبين أنه بعيد عن الله سبحانه سبعين سنة .

والعياذ بالله، هل سمعتم قصة ذلك الحجر الذي ألقي في جهنم وسمع صداه بعد سبعين سنة إنه؟ كما نقل عن رسول الله (ص) رجل هرم في السبعين من عمره ، وقد قضى عمره كله يسير نحو جهنم .

احذروا أن تكون عاقبة أحدكم أنه يقضي في الحوزة العلمية خمسين سنة أو أكثر أو أقل مع كد اليمين وعرق الجبين ثم تكون النتيجة أن كل ما تحصل عليه هو جهنم ليس إلا ... فكروا ..

ضعوا برنامجاً لتهذيب نفوسكم وإصلاح الفاسد من أخلاقكم ... وليعين كل منكم مدرّساً للأخلاق وشكّلوا مجالس للوعظ والإرشاد لتساعدكم في هذا المجال فإن السير العشوائي لا يمكن أن يوصل إلى نتيجة مرضية ومسلكية صالحة .

وإذا بقيت الحوزات العلمية هكذا خالية من المدرسين الأخلاقيين ومجالس النصيحة والموعظة فإنها محكومة بالفناء .

كيف يا ترى نعتقد بأن علم الفقه وعلم الأصول بحاجة

إلى أستاذ ودرس وبحث .. وأن كل علم في الدنيا وصنعة .. لا بد لهما من أستاذ وممارسة .. وأن الإنسان الذي يسير على غير هدى ودون تخطيط لا يمكن أن يصبح متخصِّصاً في أي مجال .. كيف تؤمن بهذا وتؤمن في نفس الوقت بأن علم الأخلاق الذي هو هدف إرسال الأنبياء ، والذي هو من أدق العلوم ، ليس بحاجة إلى التعلم والتعليم ؟.

بدون دراسة لا يمكن للإنسان أن يصبح فقيهاً ، ولكنه بدون دراسة يمكنه أن يصبح تقيّاً وخلوقاً ؟!.

لقد سمعت مراراً أن الشيخ الأنصاري رحمه الله وهو أستاذ في الفقه والأصول كان يدرس على يد مدرّس علم الأخلاق ؛ لقد بُعث أنبياء الله لبناء الإنسان وتربيته ، وإبعاده عن الخسائس والنقائص والرذائل ، وترغيبه بالفضائل . « بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1]

إن علماً قد اهتم به الله سبحانه هذا الاهتمام ، وبعث من أجله الأنبياء ؛ وأصبح الآن غير رائج في حوزاتنا العلمية ، ولا نجد أحداً يهتم به ، بما يناسبه من الاهتمام ، الأمر الذي تسبب بثغرات في المسلكية الإسلامية ، ونقص في النواحي الأخلاقية فتسرَّبت إلينا كثير من المسائل المادية والدنيوية ،

---

(١) حديث شريف

واحتلت مكان كثير من المسائل الروحية والخلقية إلى أن صار الكثيرون لا يعرفون ما معنى أن يكون الإنسان عالماً دينياً ؟ وما هي وظيفته ؟ وما هو البرنامج الذي يجب عليه اتّباعه ، والأعمال التي ينبغي أن يقوم بها ؟؟.

إن البعض منّا هم فقط بصدد تعلّم بضع كلمات ثم يرجعون إلى مناطقهم ، أو إلى مناطق أخرى ليحصلوا على الجاه ! والمقام !. ويتملّقون للآخرين .. مثل ذلك الذي كان يقول :

دعني أدرس اللمعة ... وعندئذٍ أعرف كيف أتصرف مع مختار القرية !.

إياكم وأن يكون هدف أحدكم من الدراسة هو الحصول على المقام الفلاني والمركز الفلاني ، وأن يصبح رئيس المدينة الفلانية ، أو سيّد القرية الفلانية بلا منازع ، إذا كان هذا هدف أحدكم فيمكن أن يصل إليه ولكنه لن يكسب لنفسه ولأمته إلاّ التعاسة والشقاء ..

عليكم أن تهذّبوا أنفسكم حتى إذا أصبح أحدكم رئيس قوم اشتغل في تهذيب نفوسهم ، وعمل على إصلاحهم وبنائهم فليكن هدفكم خدمة الإسلام والمسلمين .

إذا اشتغلتم لله وتعبتم في سبيله فإنه سبحانه وهو مقلب

القلوب يحببكم إلى الناس . قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمٰن ودّاً** ﴾ .

جاهدوا في سبيل الله . ضحّوا وابذلوا ، فإن الله لن يترككم بدون مثوبة وجزاء .. إن لم يكن ذلك في هذه الدنيا فستحصلون على ذلك في الآخرة . إذا لم يعطكم الله أجركم في هذه الدنيا فذلك أفضل لكم لأن الدنيا ليست شيئاً ذا بال . هذا الضجيج وهذه الاعتبارات كلها تذوب ، ولا تعمر إلا أياماً معدودة ، وتمر من أمام عين الإنسان كالحلم . ولكن الأجر الأخروي خالد لا انتهاء له ولا حدود .

خطر انحطاط الحوزات

لعل بعض الأيدي الخبيثة تنفث السمّ في أوساطنا وتركز على عدم أهمية البرامج التربوية الأخلاقية .. كما تركز في دعاياتها المغرضة على أن ارتقاء المنبر للوعظ والإرشاد مغاير للمقام العلمي .. حتى صارت الشخصيات العلمية الكبيرة تتخوف من الوصف بالمنبرية ، وبذلك يتم الهدف الخبيث وهو عزل هؤلاء العلماء المؤثرين وإبعادهم عن توعية الطلاب وتربيتهم تربية خلقية سليمة .

لقد أصبح ارتقاء المنبر في بعض الحوزات مشيناً .. غفلة من هؤلاء عن أن الرسول صلىّ الله عليه وآله وسلم كان يرتقي المنبر ، ومن عليه كان يوجّه نصائحه إلى الأمة .. وكذلك الأئمة عليهم السلام .

لعل بعض العناصر المغرضة تنشر هذه الأفكار الخبيثة في حوزاتنا ومراكزنا العلمية حتى يتاح لها تعرية هذه الحوزات وتجريدها من الأخلاقيات ، وبذلك تصبح حوزات فاسدة

ينتشر فيها النفاق وتسيطر على أفرادها الأنانية ، وتتسع رقع الاختلاف ، وينشغل أفراد الحوزات بمحاربة بعضهم البعض وينقسمون أحزاباً وشيَعاً ، يكذّب كل منهم الآخر ويوجّه إليه التهم والإهانات .. الأمر الذي يفقد هذه الحوزات رصيدها الكبير وهو ثقة الأمة الإسلامية بها ودفاعها عنها وتأييدها لها .. وعن هذا الطريق يستطيع أعداء الإسلام الذين يروجون لهذه المشاكل في حوزاتنا أن يسدّدوا ضربة قاضية إلى الحوزات ويقضوا عليها ...

إن الأعداء يعلمون مدى تأييد الأمة للحوزات العلمية ويعلمون أنهم يصعب عليهم القضاء على هذه الحوزات ما دام هذا التأييد قائماً ، ولكن عندما يفقد أفراد الحوزات وطلابها المباني الأخلاقية ، والمسلكية الإسلامية ، ويصبح شغلهم الشاغل تحطيم بعضهم البعض ويصبحون جماعات متنافرة ومتناحرة لا يتورعون عن الأعمال القبيحة واللاأخلاقية .. فإن الأمة بشكل طبيعي وتلقائي ستسوء نظرتها إلى الجامعات العلمية الدينية ثم تسحب دعمها وتأييدها لها ... وهكذا يفتح الطريق واسعاً أمام الأعداء لتسديد ضرباتهم إلى هذه الجامعات. يجب أن تعلموا أن الدول لا تخاف من علماء الدين ومن المراجع ، وما خوفهم هذا في الحقيقة إلا من الأمة .. فهم يعلمون أن قوّة المرجعية تكمن في تأييد الأمة لها والثقة بها ..

ولذا فإن الدول الكافرة تعرف أن إهانة عالم من علماء

الدين سوف تثير سخط الأمة ، ولكن الأمر لا يكون كذلك إذا وقع الاختلاف بين علماء الدين ، وأساء كل منهم الظن بالآخر ، ولم يكونوا مؤدَّبين بآداب الإسلام فإنهم يفقدون ثقة الأمة .

قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه : « لو أن حَمَلَة العلم حملوه بحقِّه لأحبهم الله وملائكته وأهل طاعته من خلْقه ؛ لكنهم حملوه لطلب الدنيا فمقتهم الله وهانوا على الناس »

إن الأمة تتوقع أن تكونوا أيها المعمَّمون مؤدَّبين بآداب الإسلام ، أن تكونوا حزب الله ، لا تهتمون ببهارج الدنيا ، وزخارفها ، أن لا تبخلوا عن بذل كل ما تستطيعون في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله ، أن لا يكون توجهكم إلا لله ، وطلباً لمرضاته ، دون أن يكون همكم رضى أحد من الناس كائناً من كان .

فإذا رأت الأمـة منكم خلاف ذلك ، وأن همكم ليس هو ما وراء الطبيعة .. بل كل همكم هو الدنيا والمصالح الشخصية كما يفعل الآخرون .. إذا رأوكم متنازعين على الدنيا ومتخاصمين لأهوائكم تتلاعبون بها للوصول إلى الأغراض الدنيوية الدنيئة ، واتخذتم الدين دكاناً ومتجراً .. فإن الأمة ستنحرف .. وتسيء الظن بكم ؛ وأنتم المسؤولون حينئذٍ عن ذلك كله .

إذا كان بعض المعمَّمين العالة على الحوزات يثيرون

المشاكل ويعمقون الاختلافات لأغراض شخصية ومنافع دنيوية . ويهتك بعضهم البعض ، ويفسق هذا منهم ذاك ، ويخلقون البلابل ويتناقشون في أمور حقيرة ، فإنهم بذلك يخونون الإسلام والقرآن ، يخونون الأمانة الإلّهية التي كلفوا حملها وحفظها .

إن الإسلام المقدس أمانة إلّهية في أيدينا . القرآن الكريم أمانة الله الكبيرة ، والعلماء هم المؤتَمَنون عليها ويجب عليهم حفظها ، وعدم خيانتها .

وما التشتت والاختلاف واللّغط والضجيج الذي لا طائل تحته إلا خيانة للإسلام ولنبيّه الأعظم صلّى الله عليه وعلى آله وسلم .

لماذا الاختلاف ؟

أنا لا أدري لِمَ هذه الاختلافات والتحزبات .. إذا كانت على الدنيا ومن أجلها ، فأي شيء في الدنيا لكم ؟ ثم إذا كان لكم من الدنيا ما يختلف عليه ، فإن الاختلاف منكم على الأمور الدنيوية غريب ، اللهم إلا أن لا يكون من العالمية إلا العباءة والعمامة . إن العالِم الذي يعتبر نفسه مرتبطاً بالله سبحانه ، بما وراء الطبيعة ، العالِم الذي يتربَّى في مدرسة الإسلام وينهل من علومه البنَّاءة المتينة ، يعلم جيِّداً أن مُن المستحيل أن يكون هدفه وتوجّهه هو الدنيا ومستهويات النفس فيها . إنه لا يفكر في ذلك فضلاً عن أن يثير المشاكل والاختلاف والتحزبات من أجله ...

أنتم يا دعاة الاقتداء بأمير المؤمنين عليه السلام .. على الأقل طالعوا قليلاً حول حياته عليه السلام ... لتروا أنكم لا تقتدون بشيء من سلوكه ؛ هل تعلمون شيئاً عن زهده وتقواه وحياته البسيطة والنظيفة ؟. وهل تطبِّقون شيئاً من ذلك ؟.

هل تفهمون شيئاً عن جهاد هذا القائد العظيم المستمر للظلم والطغيان والاستبداد ، ودفاعه عن المظلومين والمستضعَفين والمعذَّبين ؟ وإذا كنتم تفهمون شيئاً من ذلك فهل تطبِّقونه ؟.

أولئك الذين يشعلون قسماً من العالَم الآن ، وينفخون في النار المتأجِّجة فيه ، ويعمِّقون الفتن والاضطرابات ... إنما يتسابقون للسيطرة على الشعوب وابتلاع ثرواتها ونهب خيراتها وإبقاء الدول الضعيفة المتخلِّفة تحت نفوذهم ، ولذلك فهم كل يوم يثيرون حرباً في زاوية من العالم تحت عناوين برَّاقة وخدَّاعة ، فتارة تحرير شعوب ، وطوراً التنمية ، وثالثة الدفاع عن الاستقلال . وبالتستر وراء هذه الشعارات يقذفون ملايين القنابل فوق رؤوس الشعوب المستضعفة ...

وهذه الحروب مبرَّرة بحسب منطق أهل الدنيا وعقولهم الملوَّثة ، أما « حروبكم » أنتم واختلافاتكم فيما بينكم فهي غير مبرَّرة حتى على منطق هؤلاء !. لأننا إذا سألناهم لِمَ تتنازعون وتتحاربون ؟ فإنهم سيقولون مثلاً : نريد أن نحتل الدولة الفلانية ونخضعها لنفوذنا ولكن إذا سُئلتم أنتم لِمَ تتنازعون ؟ وعلى أي شيء ؟ فماذا ستجيبون إنه ليس لكم من الدنيا شيء يستحق هذا الاختلاف ! إن مرتب أحدكم الشهري الذي يأخذه من المراجع أقل مما ينفقه الآخرون لشراء السجائر مثلاً !! فلِمَ الاختلاف يا ترى ؟!.

لقد قرأت في بعض الصحف قائمة بالمخصصات التي

يدفعها الفاتيكان لقسيس في واشنطن ، وعندما حسبت ذلك وجدت أنه أكثر من كل المخصصات في حوزاتنا العلمية ... فهل من الصحيح بعد هذا أن يظل التناحر على الدنيا قائماً بينكم ؟.

إن سبب كل الاختلافات التي تفقد الهدف المحدَّد والمقدس يرجع إلى حب الدنيا ، وعندما يكون اختلاف من هذا النوع موجوداً بينكم فمعنى هذا أنكم لم تُخرجوا حب الدنيا من قلوبكم ولذلك ، وباعتبار أن المنافع الدنيوية محدودة ، يقع هذا التنافس المشين بينكم . أنت تريد المقام الفلاني ، وغيرك يريده ، وحب الدنيا يغمر القلب .. هنا لا بد أن يقع التحاسد والاختلاف .

أما رجال الله الذين أخرجوا حب الدنيا من قلوبهم ونزهوها منه ؛ فإنهم لا يبتلون بهذه المفاسد والمصائب . لو فرضنا أن جميع أنبياء الله اجتمعوا الآن في مدينة واحدة ، فمن المقطوع أنه لن يقع بينهم أي اختلاف وسوف يظلون صفاً واحداً كالبنيان المرصوص ، ذلك لأن هدف الجميع واحد ، والقلوب جميعها متوجهة نحو الله سبحانه ، وهي خالية من حب الدنيا والتعلق بها .

إذا بقيت أعمالكم وتصرفاتكم ، وظلَّ نمط سلوككم كما هو الآن ، فاحذروا أن تخرجوا من الدنيا ويتبين لكم أنكم لستم من شيعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، احذروا أن لا توفقوا للتوبة النصوح المخلصة ، وأن تُحرَموا من شفاعته

عليه السلام ، فكِّروا بطريقة تنجيكم قبل فوات الفرصة ، أقلعوا عن هذه الاختلافات الرخيصة والمبتذَلة ، هذه التحزبات والمحوريات غلط فاحش ، وخطأ مدمِّر . هل أنتم أهل ملَّتين ؟ هل في مِلَّتكم ومذهبكم شُعب وطرق متعددة ؟ لماذا لا تتيقظون ؟ لماذا لا تتنبهون ؟ لماذا لا يوجد بينكم صفاء ومحبة وأخوَّة ؟ لماذا ثم لماذا ؟؟.

هذه الاختلافات خطيرة ، وتترتب عليها مفاسد لا يمكن أن تجبر ؛ إنها تهوي بالحوزات العلمية إلى مكان سحيق . إنها تفقدكم مكانتكم الاجتماعية وتحقركم في أعين الأمة ، ولا تجنون من المحوريات إلا ما يضركم وليست تضركم أنتم وحدكم ، إنها مضرة بالأمة .. مضرة بالإسلام . وعندما تكون اختلافاتكم بهذه المثابة من الخطورة فإنها ذنوب لا تقبل العفو والغفران ، وهي أعظم من كثير من المعاصي لأنها تفسد المجتمعات وتفتح الباب واسعاً أمام تسلط الأعداء وبسط نفوذهم . ٦

لعل أيدي خبيثة تعمل على تفكيك الحوزات العلمية وزرع بذور النفاق والشقاق والاختلاف فيها ، وتعمل على تسميم الأفكار حتى يصبح التكليف الشرعي مشوباً بالنزاعات مثقلاً بالاختلافات ، ويصبح كل فريق ينظر من خلال هذه الأوضاع المتردية ويستنتج حكمه الشرعي دون التجرد منها وتحت وطأتها وحينئذٍ يستحكم ويتأصَّل الفساد ؛ وهكذا يمكن للأعداء أن يقضوا على الأمل الوحيد لإنقـ لأمة الإسلامية ، ألا

وهم الأفراد الذين يتربون في هذه المعاهد العلمية .

إن عليكم أن تكونوا يقظين فطنين ، لا تجعلوا أنفسكم ألعوبة في يد الشيطان فيقول قائلكم : إن تكليفي الشرعي يقتضي هذا الشيء .. ويقول الآخر إن تكليفي الشرعي يقتضي العكس ، ويشتد الصراع بينكم ويتعمّق النزاع .. في بعض الأحيان يتولى الشيطان صنع التكاليف الشرعية للإنسان ، ويملي عليه واجبات معيَّنة ، وفي بعض الأحيان يتولىّ ذلك هوَى النفس ..

إنه ليس حكماً شرعياً ولا واجباً دينياً أن يهين مسلم مسلماً ، أن يسيء المسلم إلى أخيه في الدين .

هذا ليس حكماً شرعياً ، إنه حب الدنيا وحب النفس إنها الأنانية ، إنها تلقينات الشيطان التي توصلنا إلى هذا الواقع المظلم .

ــ هذا التخاصم ليس من صفات المؤمنين إنه من صفات أهل النار .. **إن ذلك لحقٌ تخاصم أهل النار** [1] .

في جهنم مكان للخصومات والنزاعات ، أهل جهنم ينشبون أظافرهم ببعضهم البعض ، وأنتم بصراعكم على الدنيا وتكالبكم عليها إنما تسيرون نحو جهنم وتأخذون مواقعكم فيها .

---

(١) ص ٦٣

الأمور الأخروية لا صراع عليها ولا اختلاف وأهل الآخرة المترفعون عن سفاسف الدنيا يعيشون مع بعضهم بمحبة وصفاء ، قلوبهم مملوءة بحب الله وعبادة الله ، فمحبة الله سبب طبيعي لحب عباد الله المؤمنين ، ومحبة عباد الله ظل محبة الله سبحانه .

إن الإنسان يؤجِّج نار جهنم بأعماله القبيحة وسلوكه الشائن . نعم ، أعمال الإنسان الجامحة هي التي تحرك نار جهنم . قال عليه السلام : « جزنا وهي خامدة » فإذا لم يفعل الإنسان ما يحرك نار جهنم ويؤججها فسيكون بإمكانه اجتياز المرحلة الصعبة دون أن تتلقَّفه النار .

إن الإقبال على الدنيا ، إقبال على جهنم ، ولعب بنارها ، ولا يدرك الإنسان هذه الحقيقة إلا حين ينتقل إلى الدار الآخرة وتسقط الحجب . عندها يفهم أن (**ذلك بما قدَّمت أيديكم وأن الله ليس بظلامٍ للعبيد**) عندها يدرك معنى قوله تعالى :

﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ .

كل ما يفعله الإنسان في هذه الدنيا ، كل ما يصدر منه يراه هنالك في ذلك العالم ، يتجسَّم له .. قال تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ .

إن كل أعمال الإنسان وأفعاله وأقواله تعرض عليه هنالك

كفيلم سينمائي يصوّر هنا ، ويعرض هناك ، ولن يكون بوسع أحد أن ينكر شيئاً ، لأن الذي نراه أمامنا هو أعمالنا بالإضافة إلى أن جوارحنا تشهد علينا « **قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء** » ، هناك لن يكون بوسعكم إنكار شيء من أعمالكم ، فأنتم أمام الله سبحانه الذي يستطيع إنطاق كل شيء ، يستطيع أخذ الشهادة من كل شيء فكّروا قليلاً وكونوا بعيدي النظر زنوا عواقب الأمور ، تذكّروا العقبة الخطيرة التي ستجتازونها لا تغفلوا عن عذاب القبر ، وعالم البرزخ والشدائد والأهوال التي تعقبه . اعملوا عمل المتيقّن بوجود جهنم .. إن من يتيقن بوجود تلك العقبات الخطيرة يغيّر سلوكه المنافي ..

لو أنكم مؤمنون بهذه الأمور ومتيقنون لما كانت عيشتكم هكذا ، كما تريدون وكما يحلو لكم ، ولكنتم صنتم ألسنتكم وحفظتم جهودكم ، وتعبتم على إصلاح أنفسكم .

العناية الإلهية

من عناية الله سبحانه بعباده أن وهبهم العقل ووهبهم القدرة على تهذيب نفوسهم وتزكيتها ، وأرسل الأنبياء والأوصياء ليعملوا على هدايتهم وإصلاحهم ليتخلّصوا من عذاب جهنم .. وعندما لا تنفع كل هذه الوسائل في تنبيه الناس وإلفاتهم فإن الله سبحانه ينبّههم بوسائل أخرى وعن طرق أخرى ، بالابتلاءات . بالمصائب .. بالفقر .. بالمرض .. كالطبيب الحاذق ، كالممرض الماهر الحنون الذي يحاول تخليص مريضه من داء عضال ..

إذا كان العبد مورد عناية الله سبحانه فإنه يبتلى بصنوف الابتلاءات حتى يلتفت إلى خالقه تعالى اسمه ، ويهذب نفسه ، هذا هو الطريق ولا طريق غيره ، ولكن إذا لم يطو الإنسان بنفسه هذا الطريق ولم يحصل على النتيجة المطلوبة وكان مستحقاً لنعمة الجنة ، فإن الله يشدد عليه في حال النزع ، لعله يتذكر ويتنبَّه ، وإذا لم ينفعه هذا تأتي موقظات القبر وعالم البرزخ والعقبات التي تتبعه .. وكلها تستهدف إيقاظ هذا الإنسان حتى لا يصل به الأمر إلى جهنم .. وكل هذه المراحل الإيقاظية

عنايات إلٓهية تستهدف المنع من وصول الإنسان إلى جهنم واستحقاقه لها ..

فلو أن إنساناً لم تنفع معه كل هذه الموقظات والملفتات فماذا ستكون عاقبته ؟ هنا لا مجال بعد لأي شيء ، ويصبح لزاماً على أي إنسان أن يوقظ بالنار . إن الإنسان الذي لا تنفع معه كل هذه الوسائل لا بد من إصلاحه بالنار كالمعدن الذي لا يمكن تحويله إلى معدن خالص إلا بالنار .

جاء في مجمع البيان للطبرسي عند الكلام على الآية الشريفة ﴿ **لابثين فيها أحقاباً** ﴾ . وروى العياشي بإسناده عن حمران قال :

سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية « لابثين فيها أحقاباً ، فقال (ع) : هذه الآية في الذين يخرجون من النار » . إنها تنطبق علينا أنا وأنت ، وكل حقبة كم ؟ يعلم الله لعلها آلاف السنين ... المهم الذي علينا أن نعمل لأجله أن لا يصل الأمر بنا إلى مرحلة لا تعود الأحقاب كافية في تخليصنا من ذنوبنا وإيقاظنا على الحقائق فنصبح ممن لا يستحقون الجنّة أبداً ، بل يستحقون النار أبداً ..

نعم إن هذه الآية تتكلم عمن لم تتسع دائرة معصيته ولم تبلغ تلك الدرجة التي يستحق فيها الطرد من رحمة الله والحرمان من مغفرته ورحمته .. إنها تتكلم عمن لا يزالون يمتلكون بعض الاستحقاق الذاتي لدخول الجنة ، فلنسأل الله سبحانه

أن لا نصبح ممن يستحقون الطرد عن باب رحمته ، ويستحقون الحرمان من عنده ومغفرته ، وممن يستحقون الخلود في نار جهنم .

احذروا أن توصلكم أعمالكم إلى هذه الدرجة فيحل عليكم غضب الله إن أحدكم لا يستطيع أن يقبض لمدة دقيقة واحدة على حصاة محماة ، فاتّقوا نار جهنم ، فأبعدوا عن الحوزات العلمية هذه النيران ، هذه الاختلافات . طهّروا قلوبكم من النفاق ، حسّنوا سلوككم مع عباد الله ، وانظروا إليهم بعطف وحنان . ليكن لكم موقف صارم من العصاة لعصيانهم . مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر . وأما المؤمنون والصالحون فاحترموا العالِم منهم لعلمه ، واحترموا من هو في سبيل الهداية لأعماله الصالحة ، ليكن سلوككم مثالياً ، أحبوا الناس وحادثوهم وآخوهم . هذّبوا أنفسكم أنتم تريدون هداية الأمة وإرشادها ... والشخص الذي لا يستطيع إصلاح نفسه وإرادته فكيف يستطيع هداية الآخرين وإصلاح إراداتهم ...

هذا شهر شعبان قد أطل علينا فاجهدوا أن يوفقكم الله للتوبة حتى يمكنكم من استقبال شهر رمضان المبارك بأنفس صالحة وقلوب سليمة .

المناجاة الشعبانية [1]

في الأحاديث الشريفة أمر بقراءة هذه المناجاة في كل يوم من هذا الشهر ، فهل ناجيتم الله بها ؟ وهل استفدتم من معانيها الإيمانية الراقية ؟.

نجد في الروايات أيضاً حول هذه المناجاة أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وكذلك الأئمة من بعده كانوا يناجون الله بها ، ولا شك أن لهذه المناجاة أهميتها الخاصة ، وكذلك كانوا سلام الله عليهم يهتمون بقراءتها ومناجاة الله بها ، خصوصاً وأن الأدعية التي وردت عنهم (ع) أنهم كانوا يدأبون على قراءتها كل ليلة .

---

(١) مناجاة مولانا أمير المؤمنين (ع) وهي مناجاة الأئمة من ولده عليهم السلام وكانوا يدعون بها في شهر شعبان (رواية ابن خالويه) :
اللهم صل على محمد وآل محمد وأسمع دعائي إذا دعوتك وأسمع ندائي إذا ناديتك ، إلهي أنا عبدك الضعيف المذنب ومملوكك المنيب (المعيب) فلاتجعلني ممن صرفت عنه وجهك وحجبه سهوه عن عفوك . =

إن هذه المناجاة في الحقيقة تعد الإنسان وتهيئه للقيام بأعمال شهر رمضان المبارك ... ولعل السبب في التركيز عليها هو هذا . لكي يصبح الإنسان على استعداد والتفات ليجني الفوائد العظيمة من الصوم .

لقد كان الأئمة عليهم السلام يوضحون كثيراً من المسائل بواسطة الأدعية ؛ أسلوب الدعاء يختلف كثيراً عن الأساليب الأخرى التي كانوا يستعملونها لبيان الأحكام . والمسائل الإيمانية والعقيدية ، وكل المسائل الدقيقة المرتبطة بمعرفة الله سبحانه . كانوا يبينونها في الأدعية وبأسلوبها . من المؤسف أن نقرأ هذه الأدعية ونمر عليها دون أن نتأمل فيما تحمله من معانٍ دقيقة ، ودون أن نعرف ماذا يريد الأئمة عليهم السلام أن يقولوا .

= الهي هب لي كمال الانقطاع إليك ، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلقة بعزِّ قدسك .

إلهي واجعلني ممن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك ، فناجيته سراً وعمل لك جهراً . إلهي لم أسلط على حسن ظني قنوط اليأس ولا انقطع رجائي من جميل كرمك . إلهي إن كانت الخطايا قد أسقطتني لديك فاصفح عني بحسن توكلي عليك ، إلهي إن حطتني الذنوب من مكارم لطفك فقد نبهني اليقين إلى كرم عفوك ، إلهي إن أنامتني الغفلة عن الاستعداد للقائك فقد نبهتني المعرفة بكرم آلائك .

إلهي إن دعاني إلى النار عظيم عقابك فقد دعاني إلى الجنة جزيل ثوابك

إلهي فلك أسأل ، وإليك أبتهل وأرغب فأسألك أن تصلي على محمد وآل محمد ، وأن تجعلني ممن يديم ذكرك ولا ينقض عهدك ولا يغفل عن شكرك ولا يستخف =

تواجهنا في هذه المناجاة الفقرة التالية : « **إلٰهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلقة بعزِّ قدسك.** لعل جملة إلٰهي هب لي كمال الانقطاع إليك تبين هذه الحقيقة :

إن المؤمن الواعي يجب أن يكون قبل حلول شهر رمضان المبارك مجتنباً لكل لذائذ الدنيا .. (وهذا الاجتناب في قمته هو الانقطاع إلى الله سبحانه) .. مهيِّئاً نفسه ومستعداً تمام الاستعداد للتزود من أجواء الإيمان في شهر الصيام .

إن كمال الانقطاع لا يحصل ببساطة ، إنه يحتاج إلى ترويض للنفس غير اعتيادي ، ويحتاج إلى بذل الجهد والاستقامة والممارسة . وبدون ذلك فلا يكون بوسع الإنسان أن ينقطع عن كل ما سوى الله سبحانه وتعالى .

إن كل الصفات الإيمانية الجليلة ، وكل المستويات التقوائية الراقية تكمن في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى . ومن يتمكن من الوصول إلى هذه المرحلة فقد بلغ قمة السعادة . ولكن من

= بأمرك . إلهي وألحقني بنور عزك الأبهج فأكون لك عارفاً وعن سواك منحرفاً ومنك خائفاً مراقباً يا ذا الجلال والاكرام وصلى الله على محمد رسولك وآله الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً .   (بحار الأنوار ـ الأدعية والمناجاة) .

المستحيل أن يستطيع إنسان بلوغ هذه الذرى مادام في قلبه مثقال ذرة من حب الدنيا ، والذي يريد أن يقوم بأعمال شهر رمضان كما هو المطلوب منه ، عليه أن يحقق في نفسه هذا الانقطاع إلى الله ، وإلا فإنه لن يستطيع مراعاة آداب الضيافة ، ولن يستطيع إدراك عظمة المضيف ، لن يمكنه أن يدرك في رحاب من هو ، وعلى مائدة من ؟.

ضيافة الله

طبقاً لما ورد في الخطبة المنسوبة إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فإن جميع عباد الله هم في شهر رمضان ضيوف الله تبارك وتعالى . « **أيها الناس إنه قد أقبل إليكم شهر الله وقد دعيتم فيه إلى ضيافة الله** »[1] .

فما عليكم في هذه الأيام التي تفصلنا عن شهر الله إلا أن تفكّروا وأن تصلحوا أنفسكم وتتوجّهوا إلى خالقكم . استغفروا الله من زلاّتكم إذا كنتم ولا سمح الله قد ارتكبتم ذنباً فتوبوا إليه . إياكم أن تصدر منكم غيبة أو تهمة أو نميمة أو أي ذنب في هذا الشهر لأنكم بذلك تسيئون آداب الضيافة وقد تُدنّسون أنفسكم بالمعاصي وأنتم ضيوف الله سبحانه .

لقد دُعيتم إلى الضيافة فهيّئوا أنفسكم لهذه الضيافة العظيمة

---

(١) وسائل الشيعة ج ٢ ص ٢٢٧ .

تحلُّوا بالآداب الصورية والظاهرية على الأقل [1]. ليس معنى الصوم الإمساك عن الطعام والشراب ، إن الواجب أيضاً هو الاجتناب عن المعاصي ، وهذا من الآداب الأولية للصوم التي تقال للمبتدئين في تهذيب نفوسهم ، أمّا رجال الله الذين يريدون أن يبلغوا معدن العظمة فإن لهم آداباً غير هذه .

فالتزموا على الأقل بهذه الآداب الأولية وكما تُمسكون عن الطعام والشراب فأمسكوا عن المعاصي ، واحفظوا ألسنتكم عن الغيبة والتهمة والأقوال السيّئة ، أخرِجوا من قلوبكم الحسد والحقد وكل الصفات القبيحة الأخرى .

حصلوا إذا استطعتم الانقطاع إلى الله ، وخلّصوا أعمالكم من الرياء ، واضربوا بعرض الجدار كل توجّهاتكم نحو شياطين الإنس والجِن .

لكننا ـ على ما يبدو ـ لسنا أهلاً للوصول إلى هذا المستوى الإيماني الراقي ، والحصول على هذه السعادة الكبرى ، فحاولوا ـ على الأقل ـ أن لا يكون صومكم مقترناً باقتراف الذنوب ، وإلا فإن صومكم ـ وإن كان صحيحاً ـ ليس مقبولاً ولا يُرفع إلى الله ، لأن ارتفاع الأعمال إلى الله وقبولها لديه ـ تبارك وتعالى ـ تختلف كثيراً عن صحتها الشرعية .

---

(١) للكلام عن الآداب الحقيقية مجال آخر فإنها لا تتم إلا بالجهد والتعب .

إذا انقضى شهر رمضان ولم تجدوا أيَّ تغيير في سلوككم عما قبل شهر الصوم ، فاعلموا أنكم لم تقوموا بالصوم المطلوب منكم ، بل هذا الصوم يكون كصوم الحيوانات .

أنتم في هذا الشهر الشريف مدعوون لضيافة الله ـ تعالى ـ فإذا لم تزدد معرفتكم بالله فاعلموا أنكم لم تلبوا الدعوة كما ينبغي ، ولم تقوموا بمستلزمات الضيافة ومقتضياتها .

في شهر رمضان شهر الله ينبغي أن تعلموا ، أن أبواب رحمة الله لعباده مفتوحة ، وأن الشياطين والمردة مغلولة ، فإذا لم تستطيعوا في هذا الشهر إصلاح نفوسكم وتهذيبها ومراقبتها ، وإذا لم تتمكنوا من قطع علاقاتكم المادية بالدنيا ، وإذا لم تتمكنوا من سحق كل الأهواء النفسية البغيضة ... فإن من الصعب جداً أن تقدروا على ذلك بعد انتهاء شهر الصيام .

إذن فاغتنموا الفرصة ، وأحسنوا الاستفادة من هذه الأجواء الإيمانية الرحيمة والعظيمة . هيِّئوا أنفسكم لذلك وحاذروا أن يعبِّئكم الشيطان ويشحنكم قبل حلول شهر رمضان فإذا بكم في هذا الشهر مع أن الشياطين مغلولة تقومون بأقبح الأفعال وأشنعها وبشكل تلقائي دونما دفع منها أو تحريك .

إن الإنسان ليصل نتيجة كثرة الذنوب والمعاصي إلى مرحلة لا يعود معها يحتاج إلى وسوسة الشيطان ، بل هو لشدة ما تسيطر الظلمة والجهل على قلبه تصبح صبغة الشيطان تصبغ

سلوكه وتطبع تصرفاته لأن صبغة الشيطان مقابل « صبغة الله » ومن يتجرد من هذه يبتلي بتلك ، والتجرد من صبغة الله يتم باتّباع هوى النفس . عليكم أن تقرّروا مراقبة أنفسكم في هذا الشهر على الأقل . وعليكم أن تجتنبوا الأقوال والأفعال التي لا يرضى بها الله سبحانه وتعالى .

الآن وفي هذا المجلس عاهدوا الله سبحانه ، وأحكموا معه العهد على أن لا تغتابوا ولا تتهموا ولا تجرحوا شعور أحد بكلامكم ، في هذا الشهر سيطروا على ألسنتكم وعيونكم وأيديكم وآذانكم وتحكّموا بها . راقبوا أعمالكم وأقوالكم ... فلعل هذا القرار وهذا التصميم يكون سبباً لاستحقاقكم عناية الله سبحانه ورحمته ولطفه . وتكون النتيجة بعد انقضاء شهر رمضان وإطلاق الشياطين من الأغلال ، أنكم أصبحتم من الصالحين ولا يعود الشيطان يستطيع الاحتيال عليكم والوسوسة لكم ؛ إني أكرّر هذه النقطة وأؤكّد عليها : صمموا أن تراقبوا جوارحكم في هذا الشهر المبارك ، وكونوا حذرين دائماً وملتفتين إلى أن العمل الذي تريدون أن تعملوه ، والقول الذي تريدون أن تقولوه ، الشيء الذي تريدون سماعه ، ما هو حكمه الشرعي ؟ .

هذه آداب الصوم الأولية ، فتحلّوا بها على الأقل . إذا رأيتم شخصاً يريد أن يغتاب فحولوا بينه وبين ذلك ، وقولوا له : نحن تعهّدنا أن نجتنب المحرمات في هذا الشهر ، وإذا

لم تستطيعوا منعه من الاغتياب فاتركوا الجلسة ، لأن المسلمين ينبغي أن يأمنوا جانبكم ، ومن لا يأمن المسلمون يده ولسانه وعينه فليس في الحقيقة بمُسلم ، إنما هو مسلم ظاهراً ليس إلا كمن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله .. دون أن يلتزم بمدلولها . قال الصادق (ع) قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ألا أُنبئكم لم سميَ المؤمن مؤمناً ؟ لإيمان الناس على أنفسهم وأموالهم ، ألا أُنبئكم مَن المسلم ؟ المسلم من سَلِمَ الناس من يدهْ ولسانه .[1]

فإذا أردتم إهانة أحد من المسلمين ـ لا سمح الله ـ وغيبَته وجرح كرامته ، فاعلموا أنكم في رحاب الله سبحانه ، وعلى مائدته ، واعلموا أنكم ضيوفه تعالى ، وأنكم بمحضره تسيئون الأدب إلى عباده .

إن إهانة عبيد الله ، إهانة لِلّه . إن الناس هم عباد الله خصوصاً إذا كانوا على صراط الإيمان والعلم والتقوى . لا تستصغروا هذه الذنوب البسيطة فإن عاقبتها خطيرة لأن الإنسان الذي يمارس الذنوب تكون عاقبته عند الموت أن يكذب الله وينكر آياته . قال تعالى : ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون** ﴾ .

هذه النتيجة السيئة المدمرة لا تحصل دفعة واحدة بل بالتدريج ، ... نظرة محرمة من هنا ، وكلمة غيبة من هناك ،

---

(١) سفينة البحار مادة إيمان ـ والحديث في الأصل بالهامش .

وإهانة لإنسان مسلم من هنالك . هذه المعاصي كلها تغرس في قلب الإنسان فتنمو وتسيطر عليه وتحوله إلى قلب أسود مظلم ، وتحول بينه وبين معرفة الله ، إلى أن تكون النتيجة أن ينكر الحقائق الإيمانية ويكذب بآيات الله تعالى .

لقد ورد في بعض الروايات أن أعمالنا تعرض على رسول الله [١] ، فعندما ينظر صلى الله عليه وآله إلى أعمالكم ويراها مليئة بالأخطاء والذنوب فكم سيتألّم فحاذروا أن تسوءوه.. إنه صلوات الله عليه عندما يرى صفحات أعمالكم مملوءة بالغيبة والتهمة والإساءة إلى المسلمين ويرى كل توجّهاتكم وهمومكم هي الدنيا والماديات ويرى قلوبكم طافحة بالبغضاء والحسد والحقد والظنون السيئة ... فإنه (ص) قد يخجل من الله سبحانه ومن ملائكته المقربين ، يخجل من أن أمته لا تشكر نعم الله .

---

(١) يلاحظ تفسير قوله تعالى : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ .التوبة/ ١٠٥ .

وإليك بعض الروايات :

(١) عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) قال : تعرض الأعمال على رسول الله (ص) أعمال العباد كل صباح أبرارها وفجارها فاحذروها وهو قول الله عز وجل : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله** ﴾ وسكت .

(٢) عن أبي عبد الله (ع) قال سمعته يقول مالكم تسوءون رسول الله (ص) فقال له رجل كيف نسوؤه فقال : ما تعلمون أن أعمالكم تعرض عليه فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك فلا تسوءوا رسول الله (ص) وسروه .

إن الشخص الذي له ارتباط بك حتى إذا كان خادمك فإنه يخجلك إذا ارتكب عملاً مشيناً . فأنتم على علاقة برسول الله صلى الله عليه وآله ، أنتم بمجرد دخولكم الحوزات العلمية قد ربطتم أنفسكم بفقه الإسلام والقرآن الكريم وبالرسول الأكرم (ص) . ولذا فإنكم إذا ارتكبتم عملاً قبيحاً فإن ذلك يمسه (ص) وهو يدفع الثمن ولعله ـ لا سمح الله ـ يلعنكم . فاجهدوا أن لا تسخطوا الرسول الأعظم والأئمة الأطهار عليكم .

إن قلب الإنسان كالمرآة ، صافٍ ومضيء ، ولكنه يتكدر ويتغبش نتيجة التكالب على الدنيا وكثرة المعاصي ، فإذا استطاع الإنسان أن يؤدي الصوم على الأقل بنيَّة خالصة من الرياء (لا أقول جميع العبادات مع أنه يشترط فيها الإخلاص) وإذا تمكن أن يبقى طيلة هذا الشهر المبارك مُعرضاً عن الشهوات مجتنباً اللذائذ منقطعاً عما سوى الله وقام بعبادة الصوم هذه كما ينبغي .. فإن من الممكن أن تشمله عناية الله فيزول عن مرآة قلبه ما علق بها من الغبش وما اعتراها من الكدر وما خيَّم عليها من ظلام الذنوب . ولعل هذا يكون سبباً في أن يعرض الإنسان كلياً عن الدنيا المحرمة ولذائذها ، ومع حلول ليلة القدر يكون قد أصبح أهلاً لأن تُشرق عليه أنوارها التي لا ينالها إلا الأولياء والخلَّص من المؤمنين .

إن جزاء الصوم الحقيقي الذي قال عنه تعالى : ﴿ **الصوم**

لي وأنا أجزي به ﴾ هو هذا ، ولا شيء غيره ، حتى أن جنات تجري من تحتها الأنهار ليست جزاءاً متكافئاً مع الصوم الخالص لوجهه الكريم .

أما إذا أراد الإنسان أن يكون صيامه إطباقاً للفم عن الطعام وفتحاً له على الغيبة ، وعقداً للمجالس الدافئة في ليالي شهر رمضان وتمضية الوقت فيها في توجيه التهم وتوزيعها على الآخرين ، وإهانة للمسلمين ، ويظل هذا شأنه في كل ليلة إلى السحر ، فإنه لن يجني من صومه شيئاً ، بل إنه قد أساء آداب الضيافة ، وأضاع حق وليّ نعمته ، ووليّ النعمة ـ عزَّ اسمه ـ قد هيّأ للإنسان من قبل أن يخلقه كل وسائل الحياة والاستقرار ، وهيأ له أسباب التكامل ، أرسل الأنبياء لهدايته ، وأنزل الكتب السماوية بهدف إيصال الإنسان إلى معدن العظمة والنور الأبهج[1] ، وأعطاه القدرة والعقل والإدراك وكرمه بصنوف الكرامات ..

هل صحيح أن نقابل الله العظيم الذي أنعمّ علينا كل هذه النعم ودعانا إلى ضيافته في هذا الشهر المبارك بمثل هذه الأعمال ؟!

هل صحيح أن نكون على مائدته تعالى .. ننعّم بكل ما وفره لنا وهيأ ثم نتمرد عليه ونطغى ؟!..

لقد هيأ لنا الأسباب .. ، فهل صحيح أن نستعملها في

---

(١) إشارة إلى ما ورد في المناجاة الشعبانية « المترجم » .

معصيته مع أننا في ضيافته ؟.

أليس كفراناً للنعمة أنْ نجلس إلى مائدته سبحانه ، ثم نتجرأ عليه بالأعمال القبيحة والتصرفات الشائنة ؟!! إن الضيف يجب أن يكون على الأقل عارفاً بمقام المضيف ... ومؤدباً بآداب الضيافة ، وينبغي أن يكون حريصاً على أن لا يصدر منه ما ينافي الأخلاق ، وينافي اللياقات .: وضيف الله ينبغي أن يكون عارفاً بمقام الله العظيم ذي العزة والجلال ... هذا المقام الذي كان الأنبياء والأئمة يسعون للاستزادة من معرفته والإحاطة به إحاطة كاملة ، وكانوا يتمنون أن يصلوا إلى معدن العظمة هذا : «وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة» .

إن ضيافة الله مدخل إلى «معدن العظمة» ولقد دعا الله عباده واستضافهم ليمكنهم من بلوغ هذا المستوى العظيم ، والاشتراك في هذه الدعوة ، وحضور هذه الضيافة يتوقف على أن يكون العبد مستحقاً لها ولائقاً بها .

لقد دعا الله سبحانه عباده لكثير من الخيرات ، وكثير من اللذائذ الروحية والمعنوية ، ولكن إذا لم يكن العباد أهلاً لذلك فكيف يمكنهم الحضور إلى ساحة الحق كيف يمكن الحضور في حضرة الله تعالى الذي هو «معدن العظمة» والاشتراك في ضيافته مع كل هذه القذارات الروحية ، والرذائل الأخلاقية ، والمعاصي الظاهرة والباطنة ؟

إن الأمر ليحتاج إلى استحقاق ، وتهيؤ واستعداد ، ولا يمكن إدراك هذه المعاني حين تكون الذنوب تسود الوجوه ، وحين تكون القلوب ملوثة بالمعاصي ملطخة بالآثام ، وقد حالت بينها وبين الحق العادل حجب الظلام .

حجب النور والظلام

- إن التوجه إلى غير الله يحجب الإنسان بحجب من النور وحجب من الظلام. . فالأمور الدنيوية جميعاً عندما تتسبب بغفلة الإنسان عن آخرته. وانشداده إلى الدنيا تكون حجب ظلام. وعندما تصبح الدنيا وسيلة التوجه إلى الله والوصول إلى الآخرة التي هي دار التوبة[1] فإن حجب الظلام هذه تتبدل بحجب من النور.

وكمال الانقطاع الذي ورد ذكره في المناجاة الشعبانية هو عبارة عن أن يستطيع الإنسان إزالة كل الحجب النورانية منها والمظلمة .. وحينها يستطيع الوصول إلى ضيافة الله التي هي معدن العظمة ، ولذا نرى أن هذه المناجاة تركز على طلب البَصيرة والنور القلبي ، حتى يتمكن الإنسان من خرق حجب النور

(١) قال تعالى :﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

وبلوغ معدن العظمة : «وحتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة» .

ولكن الإنسان الذي لم يُزِل بعدُ حجبَ الظلام ...

الإنسان الذي ما يزال وكل توجهاته إلى عالم الطبيعة ، ـ والعياذ بالله ـ فإنه إنسان منحرف عن الله .. لا يعلم شيئاً عما وراء الطبيعة . وهو منكوسٌ إلى الطبيعة ولن يكون بوسعه أبدا أن يهذب نفسه وأن يستفيد من القوى الروحية لإزالة ما ران على قلبه من ظلمة الذنوب . إن إنساناً هذا شأنه هو في الحقيقة في أسفل سافلين التي هي عبارة عن أشد حجب الظلام التي تكتنف حياة إنسان ... قال تعالى : «ثم رددناه أسفل سافلين» .

هذه مرتبته مع أن الله سبحانه خلق الإنسان في أعلى مرتبة ومقام «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» .

نعم .. إن الإنسان الذي يتبع هوى نفسه .. وليس له توجه من حين عرف نفسه إلا إلى عالم الطبيعة المظلم ، فهو لا يفكر أبداً في مكان وجود عالم آخر غير هذا . ولذلك تراه غارقاً في أوحال هذا العالم ... إن إنساناً من هذا النوع هو مصداق قوله تعالى : «أخلد إلى الأرض واتبع هواه» إنه قد ابتعد عن الله سبحانه ، لأن قلبه ملوث بالذنوب ومغلف بحجب الظلام ، ولأن روحه ضمرت نتيجة كثرة المعاصي . إن عبادة الأهواء ... وحب الدنيا والجاه تعمي العقل والعين فلا يعود يمكنه التخلص من الحجب المظلمة . فضلاً عن التخلص من حجب النور وتحصيل

مرتبة الانقطاع إلى الله ..

نعم ان إنساناً من هذا النوع يكون في مقام عالٍ جداً فيما إذا لم ينكر مقام الأولياء بل إذا لم ينكر الله ... والصراط ... والبـرزخ . . والمعـاد والقيامـة والحسـاب والـكتـاب . . ، فيمـا إذا لم يتصور أن الجنة والنار خرافة ليس إلا ...، ذلك لأن الإنسان لكثرة عصيانه لله سبحانه وارتباطه الشديد بالدنيا ينكر هذه الحقائق بالتدريج .. إنه ينكر مكانة الأولياء ومقامهم مع أن ذلك أمر واضح ... وليس هو أكثر مما مرّ في عـدة جمـل من الدعاء الذي مرّ ذكره .

مرحلة العلم والإيمان

تارة نرى الإنسان يعلم بهذه الحقائق .. ولكنه لا يؤمن بها .. إن من يتولى غسل الميت ، لا يخاف من الميت لأنه متيقن أنه لا قدرة له على إيذائه وتعذيبه ،.. ذلك أن الميت قبل موته وحين كانت الروح ما تزال في بدنه كان عاجزاً عن الإيذاء ، فكيف به الآن وقد أصبح جثة هامدة لا حراك فيها .

إن الذين يخافون من الموتى هم الذين يعلمون بهذه الحقيقة، ولكنهم غير مؤمنين بها ، والأمر في المجال الإيماني كذلك ، إنك ترى قسماً من الناس هكذا ، إنهم عالمون بالله ويوم الحساب ولكنهم غير متيقنين .. إن القلب لا علم له أبداً بما أدركه العقل . إنهم يعلمون بأن الدليل يقودهم إلى الإيمان بالله والمعاد يوم القيامة ولكن هذا البرهان العقلي يمكن أن يكون هو نفسه حجاباً على قلوبهم يمنع نور الإيمان من أن يسطع عليها ولا ينقذهم من ذلك إلا الله سبحانه ، والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، الإنسان الذي يكون الله هو وليه ويخرجه من الظلمات سوف لن يرتكب الذنوب .. لن

يغتاب ، ولن يتهم ، ولن يحقد على أخيه المؤمن أو يحسده ، وسوف يشعر بالنور يملأ قلبه فلا يعود يقيم وزناً للدنيا وما فيها .. ويصبح كما ورد عن الإمام أمير المؤمنين (ع) ، ليس مستعداً لا رتكاب أدنى ظلم ، ولو كان مقابل ذلك كل الدنيا ، وكل ما فيها . فأمير المؤمنين (ع) يقول : « والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت . »

إن البعض منكم يتجاوزون كل شيء .. يغتابون عظماء الإسلام وإذا كان الآخرون يغتابون بقال المحلة ... فهؤلاء يغتابون علماء الإسلام وينسبون إليهم العظائم يهينونهم ويتجرؤون عليهم ، ذلك لأن الإيمان لم يترسخ في النفوس .. ولم يؤمنوا بجزاء أعمالهم ، بل وليست العصمة غير الإيمان الكامل .

ليس معنى عصمة الأنبياء والأولياء أن يأخذ جبريل (ع) بأيديهم فيرشدهم إلى ما ينبغي فعله ، أو ينبغي تركه . (طبعاً لو أن جبرائيل أخذ بيد الشمر على هذا النحو لما ارتكب محرماً أبداً) ، بل العصمة وليدة الإيمان ، فإذا آمن الإنسان بالله تعالى ورآه بعين القلب كما يرى الشمس ببصره فإنه من غير الممكن أن يرتكب أي ذنب .

أرأيت كيف أنك على مرأى ومسمع من شخص مسلم قوي تجتنب القيام بما يسوؤه ، إن الإنسان الذي يعتقد ويتيقن

أنه على مرأى من الله سبحانه ومسمع منه .. وأنه حاضر بين يديه تعالى باستمرار ... سوف يخاف أن يقوم بما لا يرضاه الله سبحانه ، إن المعصومين (ع) بعد أن خلقوا من طينة طاهرة وبعد بذل الجهد واكتساب الملكات الخلقية الفاضلة أصبحوا يرون أنفسهم في محضر الله سبحانه الذي يعلم كل شيء ويحيط بكل شيء ... إنهم (ع) مؤمنون بمعنى لا إله إلا الله ، ولذلك فهم على يقين من أن كل شيء وكل شخص باعتبار أنه فانٍ فسوف لن يتمكن من التأثير على مصائرهم « كل شيء هالك : إلا وجهه »[1] إذا تيقن الإنسان وآمن أن كل العوالم الظاهرة والباطنة هي في محضر الله ، وأنه سبحانه حاضر في كل مكان وناظر ..، عندها يستحيل صدور أي ذنب منه ، وحصول أية معصية .

إن الإنسان ليمتنع عن ارتكاب الذنب لوجود طفل مميز . انه يمتنع عن كشف عورته أمامه ، فكيف يا ترى يكشف عوراته بحضور الله سبحانه دون أي تورع أو خجل . السبب في ذلك هو الإيمان بوجود الطفل ، ولذلك يجتنب هذا الإنسان الذنب أمامه . وعدم الإيمان بوجود الله وحضوره ـ رغم العلم بذلك ـ لأنه لو كان مؤمناً بحضور الله لاجتنب المعاصي ، وتورع عن ارتكاب المحرمات . إن كثرة المعاصي واسوداد القلب يحول

---

(١) القصص / ٨٨ .

دون الإيمان بحضور الله واطلاعه على الأفعال .. بل يحول دون احتمال هذا فضلاً عن الإيمان به . لأن الإنسان لو كان يحتمل ــ ولا أقول يتيقن ــ صحة هذه الإخبارات التي وردت في القرآن الكريم ، وصحة هذا الوعد والوعيد لأعاد النظر في سلوكه ولما ظل مرخياً العنان لنفسه دونما حياءً أو خجل .

إنكم إذا احتملتم أن في طريق تريدون قطعه حيواناً مفترساً يمكن أن يهجم عليكم ، أو قاطع طريق يمكن أن يعترض طريقكم ، سوف تجتنبون ذلك الطريق حتماً ، إنكم تقفون وتبحثون وتحققون ، هل صحيح أن في قطع هذا الطريق تعرضاً لهذا الخطر أم لا ؟.

فهل من الممكن أن يحتمل إنسان وجود جهنم .. والخلود في نارها ، بكل صفاتها المذكورة في القرآن الكريم ، ومع ذلك يصدر منه ما لا يرضي الله سبحانه ؟!! هل من الممكن أن تصدر المعصية من شخص معتقد بحضور الله ومراقبته للعباد ، ومعتقد أنه باستمرار تحت هذه المراقبة . مستحيل انه سيجازى على أعماله ويحاسب عليها ويعاقب ، وإلا فكل كلمة يقولها ، وكل خطوة يخطوها وكل عمل يرتكبه ، فإنه يضبط ويسجل وإنه « **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** » يراقبونه ويثبتون كل أعماله وأقواله :

هل من الممكن أن يكون إنسان يعتقد بهذا أو يحتمله لا يتورع عن معصية الله ؟

إن الطامة الكبرى ليست عدم تيقن هذه الحقائق الإيمانية التي مرَّ ذكرها ..، بل عدم احتمالها ، وذلك أن ما يستفاد من سلوك البعض وطريقتهم في الحياة أنهم لا يحتملون وجود عالم ما وراء الطبيعة لأن مجرد الاحتمال كافٍ في أن يقلع الإنسان عن كثير من الأمور الشائنة .

الخطوة الأولى هي الانتباه

حتى متى تريدون أن تظلوا في غفلة عن مصيركم ، وحتى متى تريدون أن تظلوا غارقين في الفساد والتباهي ، اتقوا الله خافوه .. وخافوا عاقبة أمركم ، تيقظوا من نومكم وأفيقوا من غفلتكم . أنتم حتى الآن لم تفيقوا ولم تخطوا الخطوة الأولى . إن الخطوة الأولى هي الانتباه واليقظة ولكنكم ما زلتم نائمين . العيون منكم مفتوحة ، ولكن القلوب تغط في نوم عميق .

لو أن القلوب ليست كذلك ، ولو أنها لم تصدأ من كثرة الذنوب لما كنتم هكذا ، لا تهتمون بمصائركم ، ولما كنتم تستمرون فيما أنتم عليه دون إحساس بالمسؤولية ، وتنبهٍ إلى الخطر . لو فكرتم قليلاً بأمور آخرتكم وعقباتها الكؤود لأعطيتم اهتماماً أكثر للمسؤوليات الجسام الملقاة على عواتقكم إن لكم عالماً آخر .. إن وراءكم حساباً ، ولستم كسائر الوجودات التي لا معاد لها ولا حساب عليها .. فلماذا لا تعتبرون؟ لماذا لا تستيقظون وتنتبهون ؟ لماذا ؟ تمعنون في الغيبة والكلام الجارح إلى إخوانكم

المسلمين .. لماذا تفعلون ذلك أو تستمعون إليه بكل اطمئنان الخاطر ؟ هل تعلمون أن هذه الألسنة التي تمتد لا ستغابة الآخرين سوف تسحق تحت الأرجل يوم القيامة .. هل تعلمون أن الغيبة إدام كلاب النار (كما في حديث رسول الله (ص)) ، هل فكرتم أصلاً في العواقب الوخيمة السيئة والاختلافات والعداوات ... والحسد وإساءة الظن ، .. والأنانيات والغرور والتكبر ... هل تعلمون أن من الممكن أن تكون عاقبة هذه الأعمال الدنيئة هي الخلود في نار جهنم ـ لا سمح الله ـ ؟؟!

من سعادة الإنسان أن لا يُبتلى بمرض غير مؤلم . إن الأمراض التي يشعر معها بالألم يندفع تحت وطأة شعوره بألمها للمعالجة فيذهب إلى عيادة الطبيب ، أو إلى المستشفى ، أما المرض الذي لا يرافقه الألم ولا يحس الإنسان بوجوده (الوجود المؤثر مادياً) فإنه خطر جداً لأنه يؤثر أثره ، ولا يشعر الإنسان به إلا قد فات الأوان واستحال العلاج .

والأمراض النفسية من هذا القبيل إذ لو كانت مصحوبة بالألم المباشر لحركت المصاب ودفعته إلى معالجتها ، ولكن ماذا نفعل ؟ وماذا بالإمكان ما دامت هذه الأمراض رغم خطورتها لا يحس لها بألم .

الغرور والأنانية وكل المعاصي تفسد القلب وتفسد الروح دونما أي ألم في الجسم ، بل إن هذه الأمراض أكثر من ذلك أي ليست غير مصحوبة بألم فقط بل إنها مصحوبة باللذة . إن

مجالس الغيبة والنميمة مجالس حارة ومحببة !!

حب النفس وحب الدنيا هو المصدر الأساسي لكل الذنوب «إن حب الدنيا رأس كل خطيئة وباب كل بلية وقرآن كل فتنة وداعي كل رزية »[1] يشعر معها الإنسان باللذة والنشوة .

إن العطشان الذي يقبل على شرب الماء قد يختنق ولكنه يظل يشعر باللذة إلى آخر نفس من أنفاسه .

والمرض الذي لا يكون مصحوباً بالألم .. ويشعر صاحبه معه باللذة سوف لن يتحرك بطبيعة الحال لمعالجته مهما نبه إلى خطره ، وقيل له إنه مريض فسوف لن يصدق ـ بل يعتبر حاله في أحسن ما يرام ـ

إذا ابتلي الإنسان بحب الدنيا واتباع الهوى ، وتمكنت الدنيا من قلبه فإنه يتحلل من كل ما عدا الأمور الدنيوية ويعادي الله ـ والعياذ بالله منه ـ ويعادي عباد الله والأنبياء والأولياء والملائكة ، ويحس تجاههم بالحقد والبغضاء ، وحينما يأتي أجله وتأتي ملائكة الله لتتوفاه يشعر بالاستياء الشديد ، وينفر منهم ذلك أنهم يريدون أن يفصلوه عما تعلق به ، عن الأشياء التي ألفها وأحبها ، إنهم يريدون أن يفصلوه عن الدنيا وهي كل شيء في نظره ... ولذلك يبغضهم وينفر منهم ، وقد تكون عاقبته أن يخرج من هذه الدنيا وهو عدو الله سبحانه .

---

(١) تحف العقول

حدّث أحد الأكابر من قزريف أنه كان يجلس عند رأس شخص في حال احتضاره فسمعه يقول : إن الظلم الذي ظلمني إياه الله لم يظلمني مثله أحد .. لأني قد بذلت مهجتي في تربية أولادي وها هو يريد أن يبعدني عنهم فهل هناك ظلم أشد من هذا وأعظم ؟!

إن ما يخشى منه هو هذه العاقبة السيئة ، لأن الإنسان إذا لم يهذب نفسه ، وإذا لم يعرض عن الدنيا ، ويخرجها من قلبه ... فيخشى أن يترك الدنيا وقلبه مملوء بالحقد على الله وعلى أوليائــه .

نعم إن هذه العاقبة السيئة تنتظر الإنسان وإنه رغم كونه أشرف المخلوقات ، مهدد بهذا المصير المشؤوم فهل إنسان منحط من هذا النوع هو أشرف المخلوقات أم هو أشرها ؟!
﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ . إن المستثنى في هذه السورة هم المؤمنون الذين عملوا الصالحات ، والعمل الصالح هو العمل الذي يقوم به الإنسان ويكون منسجماً مع الروح ، ولكنا نرى أن كثيراً من أعمال الإنسان تنسجم مع الجسم دون أن يوجد من التواصي المذكور في السورة المباركة عين أو أثر .

إذا بنيتم أموركم على أساس أن حب الدنيا وحب النفس هو المسيطر عليكم والغالب على أمركم ، وهو الحائل بينكم

وبين أن تكون أعمالكم خالصة لوجه الله أيضاً ، قائمة على أساس التواصي بالحق والتواصي بالصبر وأنتم حينئذ قد أقمتم سداً في طريق اهتدائكم ، وبؤتم بالخسران المبين ، وأنتم حينئذ مصداق قوله تعالى : ﴿ **خسر الدنيا والآخرة** ﴾

لأنكم تكونون قد أضعتم شبابكم ، ثم حرمتم أنفسكم من نعيم الآخرة ونعمها فتكونون قد أضعتم دنياكم وآخرتكم .. إن الآخرين الذين لا طريق لهم إلى الجنة ، والذين سدت في وجوههم أبواب رحمة الله ، واستحقوا الخلود في النار ..، هم على الأقل يحصلون على الدنيا ويتمتعون بملذاتها .. أما أنتم ...

احذروا أن يزداد حب الدنيا وحب النفس والغرور في أنفسكم بالتدريج ـ لا سمح الله ـ فيصل الأمر بكم إلى أن يسرق الشيطان إيمانكم .ثمت رأي بأن جميع جهود الشيطان هي لأجل هذا . إن جميع جهوده ومحاولاته ، وجميع السبل التي يتبعها من أجل اختطاف إيمان الإنسان ، انكم لم تأخذوا مستنداً من أحد بثبات إيمانكم ، ولعله إيمان مستودع [1] سيتاح للشيطان أن يذهب به .. فتخرجون من الدنيا بعداوة

---

(١) ومن كلام له عليه السلام : فمن الإيمان ما يكون مستقراً في القلوب ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم . شرح المنهج للشيخ محمد عبده ص ١٥٢ .

الله وأوليائه ، بعد أن قضيتم عمركم والنعم الألهية تغمركم وأنتم على مائدة الإمام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه لعلكم بعد هذا كله ستكونون أعداء وليّ نعمتكم ـ لا سمح الله ـ .

اسعوا وحاولوا بكل جهدكم إذا كانت لكم علاقة بالدنيا وارتباط بها ، ومحبة لها ، فاسعوا ، وحاولوا بكل جهدكم أن تقطعوا هذه العلائق ... إن هذه الدنيا بجميع زخارفها وبهارجها أحقر من أن يحترمها إنسانٍ ويحبها . هذا إذا كان متمتعاً بها ، فكيف إذا كان محروماً منها .

أي شيء من الدنيا لكم حتى تنشد قلوبكم إليها ... أعرضوا عن الدنيا ودونكم المسجد والمحراب والمدرسة أو زاوية البيت ... ثم هل من الصحيح أن تتنافسوا على المسجد والمحراب فيما بينكم وتتسببوا بالنزاعات ، وتفسدون الناس لأجل ذلك .. وعلى فرض أن لكم من الدنيا ما للمرفهين المترفين منها .. فإنكم ستقضون عمركم باللذات ، ثم ترون عند انتهاء العمر أن كل هذه اللذائذ .. وكل هذه المعيشة المرفهة ليست إلا كطيف لطيف سرعان ما انقضى ، ولكن مسؤولياته وعقوباته ، ما زالت تلاحقكم وتأخذ منكم بالخناق .

هذه الحياة الفانية التي يغرُّ مظهرها .. ما قيمة لذتها (هذا إذا أنقضت دونما غصص) في مقابل العذاب الدائم الذي لا حد له

ولا نهاية ؟ إن عذاب « أهل الدنيا » هو في بعض الأحيان هكذا خالد وغير متناه !!..

ثم إن أهل الدنيا الذين يتصورون أنهم سيطروا عليها وتسلطوا . وأصبح بوسعهم التمتع بها كما يحلو لهم يبتلون بالغفلة والخطأ . الآن ؟ كل شخص يرى الأمور من زاويته وجوده ... ويتصور أن الدنيا هي كما يرى [1] . إن هذا العالم أعظم من أن يستطيع إنسان أن يتصور أنه قد سيطر عليه واكتشفه وسبر أغواره ، إن هذه الدنيا بكل وسائلها وتجهيزاتها قد ورد عنها في الحديث أن الله سبحانه « ما نظر إليها نظرة رحمة » وعليه فينبغي أن نرى كيف هو ذلك العالم الذي نظر إليه الله سبحانه نظرة رحمة ؟.

معدن العظمة الذي يدعو الله الإنسان إليه كيف هو ؟.

إن الإنسان لأصغر من أن يفهم ما هو معدن العظمة ... إنكم إذا أخلصتم نواياكم ، وأصلحتم أعمالكم ، وأخرجتم من قلوبكم حب النفس وحب الجاه ،.. فإن الدرجات الرفيعة والمقامات العالية تنتظركم وهي معدة لكم .

إن الدنيا وما فيها رغم البهارج والزخارف ، لا قيمة لها ولو بمقدار جلب شعيرة ، مقابل ما أعده الله لعباده الصالحين،

---

(١) يوجد بيت شعر فارسي معناه :

أن الدودة المختبئة في مكان ما تظن أن الكون كله هو عالمها فقط .

فاعملوا على بلوغ هذه المقامات العالية ..، وإذا استطعتم فابنوا أنفسكم نحوها بحيث لا تعودون تقيمون وزناً حتى لهذه المقامات العالية والدرجات الرفيعة .. لا تعبدوا الله لأجل الوصول إلى هذه الأمور ، بل اعبدوه لأنه أهل للعبادة [1] اسجدوا لله وعفروا جباهكم بالتراب ،.. حينها تخترقون حجب النور وتصلون إلى «معدن العظمة» فهل ستصلون إلى هذه المرتبة بأعمالكم هذه ، وسلوككم هذا . هل تتصورون أن النجاة من عقاب الله واجتياز العقبات المهولة .، والتخلص من نار جهنم يتم بهذه السهولة ؟! أنتم تتصورون أن بكاء الأئمة الأطهار ونحيب الإمام السجاد عليهم السلام كان لأجل تعليمنا ؟!

إنهم رغم مكانتهم العظيمة السامية ومقامهم الذي لا يضاهى، كانوا يبكون من الخوف ..، لأنهم يعلمون مدى خطورة الطريق الذي سيجتازون ، كانوا مطلعين على المشاكل والصعوبات، والوعورة التي ترافق اجتياز الصراط والعبور عليه .. الصراط الذي أحد طرفيه الدنيا ، وطرفه الآخر هو الآخرة ... كانوا مطلعين على عوالم القبر والبرزخ والقيامة وعقباتها الكؤود، ولذلك لم يكونوا يقر لهم قرار .. وكانوا باستمرار يلجأون إلى الله ويطالبون منه أن ينجيهم من عقاب يوم القيامة !...

---

(١) قال أمير المؤمنين (ع) : إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار . (نهج البلاغة) .

ماذا أعددتم أنتم لهذه العقبات الكأداء ، والعقوبات التي لا تطاق ... وأي طريق نجاة اخترتم ؟ متى تريدون أن تهتموا بأنفسكم وتعلموها وتهذبوها ؟.. ها أنتم الآن شباب ولكم قوة الشباب وما زلتم قادرين على التحكم بقواكم .. لم يتسلط الضعف عليكم بعد ، فإذا لم تكونوا الآن بصدد تزكية أنفسكم وبناء ذواتكم .. فكيف ستتمكنون من ذلك غداً ... عندما يتغلب الضعف عليكم ، ويسيطر الوهن .. ، عندما تفقدون العزم ، وتضمحل فيكم الإرادة ، فيكون ثقل الذنوب زاد من ظلمة القلب عندها ، كيف ستستطيعون بناء أنفسكم وتهذيبها ؟

إن كل نفس تتنفسونه ... وكل خطوة تخطونها .. وكل لحظة تنصرم من عمركم تزيد في صعوبة إصلاحكم لأنفسكم ، وربما زادت أيضاً في ظلمة القلب والتباهي والغرور .

كلما ازداد عمر الإنسان وازدادت الموانع دون تحصيل الإنسان سعادته ، تضعف القدرة على الإصلاح .. فإذا بلغتم مرحلة الشيخوخة ــ (وبتعبير آخر شيخوخة النفس) ــ فإن من البعيد أن توفقوا لاكتساب الفضيلة والتقوى ... آنذاك لن تستطيعوا أن تتوبوا ، لأن التوبة لا تتحقق بلفظ « أتوب إلى الله » بل إنها تتوقف على الندم والعزم على ترك الذنوب ، والندم والعزم لن يحصلا للأشخاص الذين قطعوا خمسين سنة أو أكثر بالغيبة والكذب وابيضت لحاهم على المعصية والذنوب .. إن هؤلاء يظلون أسارى ذنوبهم إلى آخر أعمارهم .

فليتحرك الشباب قبل أن يلفهم الشيب ... لقد بلغنا هذه المرحلة ونحن أعلم وأخبر بمصائبها ومشاكلها ... إنكم ما دمتم في مرحلة الشباب تستطيعون أن تفعلوا شيئاً .. إنكم ما دمتم تملكون عزيمة الشباب ، وإرادة الشباب تستطيعون أن تبعدوا عنكم أهواء النفس ومشتهياتها الحيوانية ولكن إذا لم تبادروا إلى ذلك الآن ، ولم تكونوا بصدد إصلاح أنفسكم من الآن ... فإن ذلك سيكون ضرباً من المحال عندما تبلغون مرحلة الهرم .. فكّروا بأنفسكم ما دمتم شباباً ولا تصبروا إلى أن تصبحوا شيباً ضعافاً عاجزين .

إن قلب الشاب قلب لطيف وملكوتي .. ودوافع الفساد فيه ضعيفة وكلما كبر الإنسان استحكمت في قلبه جذور المعصية إلى أن يصبح اقتلاعها من القلب مستحيلاً .. وكما ورد في الحديث عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد ، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض ، فإذا البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً وهو قول الله عزَّ وجل﴿ **بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ [1] .

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ٢٣٩

إن إنساناً من هذا النوع قد لا يمر عليه يوم أو ليلة دون أن يعصي الله . وحينها يكون من الصعب أن يرجع قلبه في سن الشيخوخة إلى حالته الأولى .

أنتم إذا لم تصلحوا أنفسكم ـ لا سمح الله ـ وخرجتم من الدنيا بقلوب سوداء ، وعيون وآذان وألسنة ملوثة بالذنوب فكيف ستقابلون الله ؟ هذه الأمانات الإلهية التي استودعكم الله إياها بمنتهى الطهارة والبراءة كيف ستردونها بمنتهى القذارة والرذالـة ..

هذه العين وهذه الأذن اللتان هما في اختياركم ، وهذه اليد ، وهذا اللسان اللذان هما في سلطتكم ... هذه الأعضاء والجوارح التي تعيشون معها ..، كلها أمانات الله العزيز المتعال .. وقد أعطاكم إياها بتمام السلامة والطهارة ، فإذا ابتليت بالمعاصي فإنها تتلوث وتتقذر ... وآنذاك عندما تريدون إعادة هذه الأمانة فقد تسألون :

أهكذا تحفظ الأمانة ؟ هل سلمناكم هذه الأمانات هكذا؟ القلب الذي أعطيناكم إياه هكذا كان ؟ العين التي استودعناكم إياها هكذا كانت ؟ وسائر الأعضاء والجوارح التي جعلناها في اختياركم هل كانت هكذا قذرة وملوثة ؟.

بماذا ستجيبون على هذه الأسئلة ؟ وكيف ستواجهون الله الذي خنتم أماناته بهذه الدرجة من الخيانة ؟ إنكم الآن

شباب ... وقدقررتم أن تفنوا شبابكم في هذا الطريق الذي لن ينفعكم دنيوياً نفعاً ملحوظاً فإذا صرفتم أوقاتكم الثمينة هذه ، وربيع شبابكم في طريق الله ، وهدف مقدس ومعين فإنكم لا تكونون خسرتم شيئاً بل إنكم بذلك تربحون الدنيا والآخرة .. ولكن إذا بقيتم على هذا المنوال الذي يرى ؟ فإنكم تتلفون شبابكم ،وتهدرون لباب عمركم ، وستكونون مسؤولين أعظم مسؤولية في العالم الآخر عند الله سبحانه .. وسوف لن ينحصر جزاؤكم على أعمالـكم الفاسـدة والمفسـدة هذه ، بالعالم الآخر . بل إنكم سترون أنفسكم في هذه الدنيا وقد وقد أحاط بكم البلاء من كل جانب ، وسدت عليكم الآفاق وضيق الخناق ، وسترون أنكم وقعتم في ابتلاءات تضيق عليكم معها المصادر والموارد .. إن مستقبلكم مظلم والأعداء كثر يحيطون بكم من كل حانب ، إنهم قد وضعوا الخطط الجهنمية الفتاكة للقضاء عليكم أنتم وهذه الحوزات موضع التنفيذ ... إنهم وتحت ستار الإسلام قد وضعوا لكم الخطط الخطيرة ولن تستطيعوا أن تتخلصوا من خططهم الشيطانية إلا في ظل بناء الأنفس والتنظيم ... وإعداد العدة ... بهذا وحده تستطيعون أن تحبطوا محاولاتهم المجرمة هذه ..

أنا الآن أقضي أيام آخر عمري ... وسأفارقكم بعد فترة قصيرة أو طويلة ... ولكني أتوقع مستقبلاً مظلماً وأياماً سوداء إذا لم تصلحوا أنفسكم ...

تنظيم الحوزات

إنكم محكومون بالفناء والاندثار ـ لا سمح الله ـ فيما إذا لم تهيئوا الأسباب ، وتنظموا أموركم الدراسية وتضبطوا أوضاعكم . ففكروا قبل أن تضيع الفرصة ... وقبل أن يستولي الأعداء على كل شؤونكم الدينية والعلمية ، فكّروا ... وانتبهوا ، هبوا واهتموا ، أول ما تهتمون به ، تهذيب النفس وتزكيتها ، واصلاح ذات بينكم ، خذوا بوسائل العصر ، نظموا أموركم ، وابسطوا النظام والانضباط على كل جنبات أمور الحوزات العلمية ، لاتدعوا الآخرين يحاولون تنظيم هذه الحوزات .. ، لا تسمحوا للأعداء أن يتسلطوا عليها بحجة أن هؤلاء ـ أي العلماء ـ ليسوا أهلاً لشيء .. لا يقدرون أن يفعلوا شيئاً .. إنما هم مجموعة عاطلين عن العمل « عاطلون بطالون » !! ألا إن الأعداء يريدون إفساد هذه الحوزات بحجة إصلاحها وتنظيمها ، يريدون أن يتسلطوا عليكم ، فلا تدعوا لهم عذراً .. إذا نظمتم أموركم وهذبتم أنفسكم وضبطتم كل أوضاعكم فلن يطمع الآخرون بكم .. ولن يبقى لهم مجال للنفوذ إلى جامعاتنا

العلمية ... أنتم هذبوا أنفسكم وتجهزوا واستعدوا للحيلولة دون وقوع المفاسد التي يمكن أن تعترضكم ... اجعلوا الحوزات العلمية قادرة على التصدي للمشاكل التي ستجابهها . إن أياماً سوداء ـ لا سمح الله ـ بانتظاركم ، ويبدو أن اياماً عجافاً ستواجهكم .. إن عملاء الاستعمار يريدون أن يقضوا على كل وجود للإسلام وعلى كل مظهر له ، وعليكم أن تقفوا وقفة شجاعة ولن يمكنكم ذلك مع وجود حب النفس وحب الجاه والتكبر والغرور ... إن عالِم السوء ، العالم الذي يهتم بالدنيا ، العالم الذي يفكر في حفظ مركزه وزعامته لا يستطيع أن يجاهد أعداء الإسلام ، وضرره أكثر من ضرر غيره فلتكن خطواتكم إلهية ... أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم ، آنذاك يمكنكم أن تجاهدوا .. من الآن ازرعوا هذه النقطة في قلوبكم وربّوها ، فليقل كل منكم ! « أريد أن أكون جندياً مصلحاً مسلماً » ، وأريد أن أضحي للإسلام ، يجب أن أعمل للإسلام حتى الشهادة ...، لا تخلقوا لأنفسكم المعاذير فتقولوا : إن المقتضي اليوم غير موجود ، يجب أن تتعبوا وتبذلوا الجهد ، حتى تكونوا في المستقبل نافعين للإسلام .. وحتى يكون كل منكم وباختصار **إنساناً** .

إن عملاء الاستعمار يخافون من **الإنسان** .. المستعمرون الذين يريدون نهب كل مقوماتنا . لا يسمحون أن يتربّى في جامعاتنا « إنسان » **لأنهم من الإنسان يخافون** .. وإذا وجد

إنسان في دولة ما فإنه خطير عليهم يضايقهم ويهدد مصالحهم .

إن الواجب يملي عليكم أن تبنوا أنفسكم ليصبح كل منكم إنساناً سوياً ومتكاملاً وأن تقفوا في وجه مخططات أعداء الإسلام المشؤومة .. وإذا لم تنظموا أنفسكم ، وتستعدوا وتهيئوا الأسباب . ثم تتصدوا للضربات التي تكال كل يوم للإسلام . فإنكم أنتم ستندثرون ، وكذلك أحكام الإسلام وقوانينه ، وستكونون مسؤولين عن ذلك كله ... أنتم أيها العلماء .. وأنتم أيها الطلاب ياطلاب العلوم الدينية .. أنتم أيها المسلمون كلكم مسؤولون ... ومسؤولية العلماء والطلاب تأتي في الدرجة الأولى ثم تأتي مسؤولية جميع المسلمين « وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

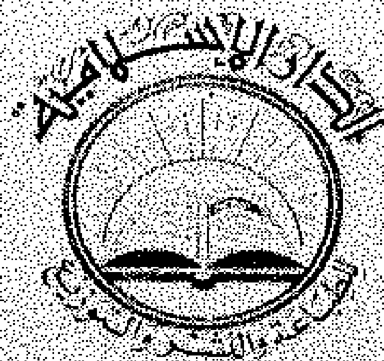
أنتم أيها الشباب ينبغي أن تقووا من إرادتكم ، حتى يمكنكم مجابهة كل أنواع الظلم والاستبداد .. ولا سبيل غير هذا ، إن كرامتكم وكرامة الدول الإسلامية ، متوقفة على مدى استعدادكم للتضحية والبذل والعطاء .

نسأل الله تعالى حفظ الإسلام والمسلمين والدول الإسلامية من شرور الأعداء وأن يحمي الإسلام والحوزات الإسلامية من المستعمرين والخونة ، وأن يوفق علماء الإسلام والمراجع العظام للدفاع عن أحكام الشريعة المقدسة ونشر أحكام القرآن .. وأن يوفق العلماء وطلاب العلوم الدينية للتنبه إلى الأخطار المحدقة بهم ، والتنبه إلى مسؤولياتهم الجسيمة .. كما نسأله تعالى أن يوفق شباب المسلمين وجامعييهم بالخصوص ، ويوفق المسلمين

عموماً ، لبناء أنفسهم وتهذيبها وتزكيتها وأن يوفق الجميع لليقظة واجتناب الخمول والتحجر والكسل حتى يتفاعلوا مع تعاليم الإسلام الجهادية والتغييرية ... وينهضوا صفاً واحداً لقطع أيادي الاستعمار وأعداء الإسلام التي تنال من كرامتهم .. ويحصلوا على استقلال بلادهم وحريتهم .

ربنا أفرغ علينا صبراً ، وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. ربنا وتقبل دعاء .

الفهرس



بيروت - كورنيش المزرعة - الحسن سنتر
هاتف ٨١٦٦٢٧ ص. ب. ١٤/٥٦٨٠

5